﴿ قل انظروا ماذا في السموات والارض ﴾

ميزان الجواهر

في

عجائب هذا الكون الباهر

تاليف

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ طنطاوي جوهرى

(من متخرجي الازهر الشريف ومدرسة دار العلوم)

طبع

على نفقة العلامة الحبر المحقق والفهامة البحر المدقق
قدوة السالكين وامام العارفين الفريد الوحيد
ناشر لواء التوحيد سيدي

﴿ الشيخ علي ابى النور الجربي السكندرى ﴾

امام سراي دولتلو الغازي احمد باشا مختار · وفقه الله الى مايحب ويختار

طبعة اولى سنة ١٣١٨ هجرية

(طبع في المطبعة المتوسطة بشارع الرويعي بمصر نمره ١٤)

أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء

الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان الا تطغوا في الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الجمال والبهاء * جليل النعماء * عظيم الآلاء *
خط رسوم بدائع جماله * ودلائل جلاله * باقلام القضاء *
على صفحات السماء * وألواح الهواء * فى الفضاء * واكناف
الماء * وآفاق الغبراء * بهر العقول بحكمته * وغشّى الاكوان
برحمته * ابرز الكون عروساً لبست من الحلل ألوانا *
فسحرت ألباب العارفين حسناً واحسانا * فكلهم فى سناء جماله
هيّمون وفى بحار انوار بهائه غارقون * وفي أودية الوله والشوق
له تائهون

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف
والصلاة والسلام على السراج الوهاج * المرشد الى
خير منهاج * سيدنا محمد الذي حث على التبصر والاعتبار
كلّ حي * بما انزل عليه من قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا في
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ صلى

الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا بنور اليقين { اما بعد }
فان من نظر فى آيات القرآن والاحاديث النبويّة من مدح
العقل والفقه والفهم والتفكّر والاعتبار في ملكوت السموات
والارض انبهر لبه وولهت نفسه واشتعلت نار الشوق في
مشكاة بصيرته التى يكاد زيت معرفتها يضئ ولو لم تمسسه
نار فتبارك الله ﴿ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾
فيقتنصون به شوارد العلوم العالية بالنظر فى مصنوعات الرحمن
جلّ وعلا فمن ذا الذي لا يهيم وجداً ولا يطير شوقاً فى علوم
العقليات اذا سمع قوله تعالى ﴿ انَّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ
واخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلبابِ الّذِينَ يَذكُرُونَ
اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ ﴾

امْ من ذا الذي لا يشرد النوم عن عينيه اذا قرأ قوله
تعالى ﴿ ان فى خلق السمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ والنّهار
والفُلْكِ الَّتي تجرى فى البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ
السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبثَّ فِيها مِنْ

كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

شرِّدِ النومَ عن عيونك وانظرْ
حِكمةً توقظُ النفوسَ النياما

فحرام على امرئ لم يشاهد
حكمةَ الله ان يذوقَ المناما

بل ما قيمة الحياة الدنيا وما ثمرتها اذا ضاعت فى الشهوات . وطاحت فى الجهالات ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وكيف يقرُّ للعاقل قرار او يكون لهُ اصطبار على الجهل والعار المؤذن بعذاب النار فهل يجعلُ الرجسُ الّا على الذين لا يعقلون ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

تأملْ سطورَ الكائنات فانها
من الملأ الأعلى اليكَ رسائلُ

وقد خُطَّ فيها لو قرأْتَ سطورها
أَلا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

وآيات القرآن فى هذا الشأن لا تنحصر وأوّل من عقلها وتدبَّرها سيّد الوجود الانسانُ الكامل سيدنا محمد صلّى اللهُ عليه وسلم كما روى صاحب الاحياء انه صلّى ذات ليلةٍ صلاةً طويلة وهو يبكي فى قيامه وركوعه وسجوده ثم اضطجع على جنبهِ فأَتاهُ بلال فقال يا رسول الله ما يبكيكَ وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدّم من ذنبكَ وما تأَخّر فقال ويحكَ يا بلال وما يمنعني ان ابكيَ وقد أنزل اللهُ عليّ فى هذه الليلة آيةً ﴿انَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثمَّ قال ويلٌ لمن قرأَها ولم يتفكر فيها وما احسن قول الشاعر

اذا المرءُ كانت لهُ فكرةٌ
ففي كل شيءٍ لهُ عبرةٌ

فاول من أشرقت عليه أنوارُ العلوم مَنْ تَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ومنه أشرق على الأمَّة فأَخذوا يحذون حذوه اذ أمرهم بذلك كما روى صاحب الاحياء ايضا انه صلى الله عليه وسلم مرَّ على قوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تتكلمون

فقالوا نتفكر فى خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا
تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه فأن بهذا المغرب أرضاً
بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس اربعين
يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين
قالوا يا رسول الله فاين الشيطان منهم قال لا يدرون خلق
الشيطان ام لا قالوا أمن ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم ام
لا . اه . فيا ليت شعري أين تلك الارض وفى اي أقطار هذا
الفضاء محلها ويا عجباً للاستكشافات الحديثة والعلوم الجديدة
التي اشرقت أنوارها فى ربوع المدنية الحاضرة فقد اظهرت لنا
من الشموس العظيمة والعجائب الغريبة ما أدهش الحكماء
وأرتنا ما يشير اليه هذا الحديث ونحوه فلعل هذه الارض التى
نُصَّ عليها فى الحديث من تلك الشموس التى عثروا عليها بالمنظار
المقرّب فالحق والحق أقول ان علوم العصر الحاضر هي مما حثَّت
عليه الشريعة المطهَّرة وأومأ اليها القرآن الشريف بل فيه خمسمائة
آية ذكر الله فيها انواع العلويات والسفليات وما بينهما تارةً
مفصلاً وتارةً مجملاً وأُخرى يقول ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ومرة يقول ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ وكما
ذكر هذه المبدعات أمَرَ بالتفكُّر فيها والاعتبار بها بمدح العقل
والفكر والذكر فمرَّة يقول ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
وأُخرى ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وأُخرى ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
وهكذا وتارةً ينكر على نوع الانسان ويوبخه على ترك الذكري
فيقول ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ اي متذكر * أفلا تَعْقِلُونَ * أفلا
تَسْمَعُونَ * أفلا تبصرون * أفلا يَرَوْنَ الا يَرْجِعُ اليهم قولاً *
لعلكم تعقلون * أَوَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ وهكذا مما لا يحتمله المقام
فانظروا ايها العقلاء وتأملوا فى هذه الآفاق المملوءة بالبدائع
واقرأوا كتب القوم وسيروا فى الارض واطلبوا العلم ولو بالصين
وخذوا الجواهر من الصدف ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا
اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ولا تكونوا كالذين قالوا ربنا آتنا
فى الدنيا حسنةً ووقفت همتهم على ذلك بل كونوا من الذين قالوا
﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴾ فأن خيركم من عمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ولآخرته
كانه يموت غداً كما بيَّنه سيّد الوجود صلى الله عليه وسلم وقبيحٌ بمن

أُوتي قدرةً وفهماً وغنىً وبسطةً فى الرزق ان يخرج من الدنيا
وهو جاهلٌ بآثار الربوبية فى هذا العالم ولا يدري ماحولهُ من
الـكائنات ﴿ اولئك الذين ختم اللهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم
واولئك هم الغافلون ﴾ نَهَجَ من قبلكم من آبائكم الصراطَ
المستقيم بما أُمِر به على عقولهم الـكتاب المبين من مدح التفكّر
والفهم فأخذوا يبحثون على أنواع العلوم من الطبيعيات والرياضيات
والالهيات ولم ينسوا حظّاً مما ذُكروا به واخذوا بالوجهتين
العلمية والعملية للمعاش والمعاد اولئك لهم نصيبٌ مما كسبوا
ولعمركَ لم يوقظهم الاَّ حثُّ القرآن على التفكر والتعقل . اما
غيرهم من الامم الغربية فلما لم يكن لهم مرشد من دينهم الى
العقليات وقفوا على قضايا الدين وحدها وتركوا العقل ولم
يوقظهم لاستعماله الا تلك الحروب العامة التي أشعل نيرانها
روساؤهم فاحترقوا بنارها واقتبس القوم منها علوماً اخذوها
عن الشرقيين وتنبهت عقولهم على حين غفلة منا

تشهد بذلك علماؤهم ويقرُّ به حكماؤهم ويعترفون بانهم
تلامذة آبائنا الاولين كما ذكره المؤرّخون لا سيما العالم

الفرنساوى المؤرخ الشهير « سديو » فمن اطلع على كتابه ايقن
ان المدنية الحاضرة كلها نفثة من نفثات ظهور الدين الاسلامى
او صبح اشرق من انوار الشموس المحمدية حتى استحق صلى
الله عليه وسلم ان يكون خاتما للنبيين ورحمة للعالمين لا للمؤمنين
فقط . هذا وليس غرضي من هذا الـكتاب الا وجهة اللذة
العقلية وزيادة الاطلاع على عجائب الـكون ظاهرها وباطنها
اذ هذا غرض اكابر الحـكماء بل هو المقصود من وجود
الانسان بل العالم كلّهِ كما سأبينه ان شاء الله تعالى عند الـكلام
على المقصود من هذا العالم كيف والعاقل يأنف من قبيح
صورته الظاهرة مع انها تفنى بموته ولا قدرة له على اصلاحها
فكيف يرضى لنفسه تشويه صورته الباطنية بالجهل بهذه
العوالم والصورة الباطنية لا تفنى بالموت وهو قادرٌ على
تحسينها بالعلم

ولما كنت مولعاً بانواع العلوم الكونية من إبّان
شبيبتي عاشقاً لكشف اللثام عن مخدراتها ناظراً في السنّة
والقرآن عاكفاً على درس العلوم الحديثة احببت ان اضبط

خلاصة ما اصطفيته لنفسى من ذلك كله ليكون تذكرة لي
ولاخ صادق الرغبة فى المعارف والعلوم راغباً فيما رغبت فيه
فجمعت كثيراً من ظواهر عجائب الكون وكثيراً من التحقيقات
العلمية الغريبة في كتاب سميته جواهر العلوم ثم جمعت ما هو
ارق وأدق في الفكر من العجائب العلوية والحقائق السفلية
باحثاً عن الاسباب والنتائج مما يلذ النفوس العالية فى هذا
الكتاب فجاء تماماً على الذى احسن وتفصيلا ولذلك سميته
(ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر) اذ قد جمع
فاوعى من ظواهر العالم وبواطنه وغرائبه وعجائبه فهو جنة
عرضها السموات والارض اعدت للمتفكرين وبستان تقر به
اعين الناظرين فيه من كل فاكهة زوجان وجنى جنتيه دان
﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فهو بحمد الله يترقرق حسناً
وسناء ويشرق بهجة وضياء فهو عروس تجلت فى اثواب البهاء
لا ينال وصلها الا العاشقون اولوا الصفاء الذين قصدوا الحقيقة
ولم يجنحوا الى المراء ولقد كنت اودعت جواهره فى صدفها
وعرائسه فى خدرها اذ لم اجد لها كفوءاً ازفها اليه او خاطباً

تجلى عليه حتى بلغ الكتاب اجله واطلع عليه قدوة المرشدين
الكملة وامام العارفين وهادى المريدين حامل لواء العرفان
وعمدة اهل العيان العالم العامل والامام الكامل الاستاذ الولى
الوفى العارف بالله تعالى الشيخ على ابو النور الجربى فعزمت
عقدها عليه وألقيت مقاليدها اليه فلم تصلح الا له وان لله
ملائكة يسوقون الاشكال الى اشكالها ولرغبته حفظه الله فى
نشر العلم وحب الفضائل كما هو دأبه وعد بطبعه على نفقته
وعند ذلك انست صدق وجهتي واطمأن قلبي لاتمام العمل
وايقنت ان هذا اذن من الحق سبحانه وتعالى بالسير على
هذا النمط فى التآليف العلمية

اذا ما صراح الحق قد وافق الهوى
فذلك مثل الترسيان مع الزبد

وقد قال لي (ان هذا العصر لا يصلح فيه الا ابراز العلوم
الدينية في قوالب المعارف العصرية فان الناس تنبهت والعقول
تنورت ولكل مقام مقال ولكل فن رجال فانسج على
منوالك فانت اهل لذلك) واقول ان هذا راجع الى حسن

ظنه لا غيره ورب الدار ادرى بما فيها ولكن اذا اراد الله بعبد خيرا وضع ثقة اكابر الناس فيه وقد آن ان نشرع فى المقصود بتوفيق الله تعالى ونقدم ثلاث مقدمات فنقول

﴿المقدمة الاولى﴾

اعلم ان أحوال الانسان من حيث اللذة والالم تنقسم الى أربعة اقسام.ما يلذ فى الدنيا والآخرة كالعلم وحسن الخلق.وما يؤلم فيهما كالجهل وسوء الخلق وما يلذ في الدنيا ويؤلم فى الآخرة كاللذات السافلة التي لا دوام لها.وما يؤلم فى الدنيا ويلذ فى الآخرة كالصبر وكظم الغيظ والغرض من هذا الكتاب لذة العلم والمعرفة بنظام الكون من حيث انه موزون بميزان الحكمة والعدل والقسط وتلك المعرفة لذة دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة فلا تصل اليها ايدى المفسدين ولا تنتهبها أعوان الظالمين وهي من الحكمة التي قال الله فيها ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ثم ان الحكمة لا تتم لذتها لصاحبها ولا

ينالها على أحسن وجه الا اذا اردفها باخواتها الثلاثة وهي العفة والشجاعة والعدالة وفروعها التي ذكرها اساطين الحكمة في علم الاخلاق (أنظر سلوك المالك في تدبير الممالك او كتاب تهذيب الاخلاق الذى ألفه ابن مسكويه) ومن لم يكمل بهذه الفضائل وهو بعد يعشق الحكمة يكون كعاشق لقى معشوقه وتحت ثيابه عقارب تلدغه فلذلك احببت ان اذكر في هذا الكتاب ان شاء الله تعالى مع العجائب الكونية كثيراً من الفضائل النفيسة اذ بين الآفاق والانفس مضاهاة تامة كما قاله ذلك العارف فبهذا يكون من قرأ هذا الكتاب آخذاً طرفا من قسمي الحكمة النظرى والعملى ليشوقه ذلك الى البحث عنها في مظانها وقد أشار الله تعالى الى العدل والقسط والميزان الذى أسس عليه السموات والارض بقوله (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) اي العدل والنظام الذي هو غرض كتابنا هذا وانظر كيف قدم نفسه جل وعلا اذ لا يعرف الله الا الله وثنى بالملائكة لتجردهم لذلك واخر أولى العلم من

بني آدم وكلٌّ له مقام معلوم على حسب ما عرف من موازين
العدل ونظام الكون وارشدنا فيها الى انه لا ينال هذه
المعرفة الا من عرف قيامه بالقسط في تكوينه وابداعه وقليل ما هم
وهو لعمري يحتاج الى تحصيل علوم كثيرة مع فكرة تامة وقلب
حاضر كما قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ
أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ بعد ذكره عجائب صنعه في انزال الماء من السماء
واخراج الثمرات من الارض وتخطيط الجبال بالالوان
البديعة من ابيض ناصع واحمر قان واسود غربيب وهكذا
الحيوان والانسان وذلك قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ
جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ
وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ) انما يخشى الآية
اشارة الى ان المراد بالعلماء انما هم المتحققون بمعرفة صانع هذا
الكون وبدائعه فيه من الغرائب والعجائب التي لا يشرحها
الا طول البحث والفكر ولصعوبة هذا المقام لم يكن الحق

شرعة لكل وارد ولم يرد عليه الا الواحد بعد الواحد ثم انظر
كيف أرشدنا الله تعالى ان نحذو حذوه في أخلاقنا ونظام
افعالنا مرشدًا الى تلك المضاهاة بقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكأنه تعالى يقول اني وضعت
سمواتي وارضي واسست ملكي على العدل وحسن النظام
وكل شيء عندنا بمقدار فانظروا في افعالنا لتكونوا حكماء
وتخلقوا باخلاقنا لتكونوا ربانيين عدلا ذوي كمال خلقي فلا
تطغوا في ميزان اعمالكم فتميلوا الى الافراط فيها ولا تخسروا
ميزانها وتنقصوه فتميلوا الى التفريط بل اعتدلوا في اقوالكم
وافعالكم بلا زيادة ولا نقص ولا افراط ولا تفريط واقيموا
الوزن بالقسط حتى تكون اعمالكم قائمة بالعدل على النسق
الذي رأيتموه في افعالنا ولقد ادرك ذلك المعنى كسرى انو
شروان حيث سئل بمَ انتظم ملكك فقال نظرت في ملكوت
السموات والارض فرأيته قائما بالعدل فعرفت ان ملكي لا

يدوم الا به وعلى ذلك استه فاستقام . وسيأتى تحقيق معنى الميزان ان شاء الله تعالى

واعلم ان القرآن كما ارشد بهذه الآيات الى تلك المضاهاة وملاحظتها فصلها فى كثير من المواضع وتوضيحه ان العالم كله كانه شرح لمتن الانسان فكل شيء فينا نراه مجسما في الكائنات فالروح كالشمس والعقل كالقمر من حيث الضعف اولاً والقوة ثانيا والضعف آخراً والعظام كالجبال والعضلات كالارض والعروق كالانهار والحواس كالكواكب والسوائل المختلفة حلوة وغيرها كالبحار العذبة والملحة والشعور كالنبات واخلاق الحيوانات المختلفة وغرائزها الطبيعية قد وزعت على نوع الانسان حتى كانها شخصت اخلاق هذا النوع واظهرتها للعيان ألا ترى ان القوة الغضبية ظهرت فى نوع السباع التي منها الكلب والقوة الشهوية ظهرت فى الخنزير وانظر كيف يتسابُّ الناس عالمهم وجاهلهم بالنسبة الى الكلب والخنزير فكأن من قال فلان ابن كلب نسبهُ الى القوَّة الغضبية وطغيانها ومن نُسب الى الخنزير فقد ذمَّ بزيادة القوة الشهوية وليس يخاف على ابن آدم سواهما وهما

العائقتان عن الحكمة ومعرفة اسرارها فتأمل كيف دار على ألسنة الناس هاتان اللفظتان وتحتهما اسرار لا تتناهى والعجب انه شبَّه بالكلب بلعام بن باعوراء لتركه الكمال النفساني ومقتضى العلم الرباني فى قوله تعالى ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ راجع هذه الآية والقصة فى التفسير واياك ان تظن ان هذا التمثيل يقتصر عليه بل هو عامٌّ لكل من شغله بطنه وفرجُه عن التفكر فى جماله تعالى وجلاله فى خلقه لانصراف نفسه عن الكمال الى النقص وعدم تفرقتها بين الشرف والضعة كالكلب ولذلك اعقبه تعالى بقوله ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقد حرَّمت الشريعة الاسلامية الخنزير والكلب وكأنها تشير بطرف خفي الى ذلك بل في اكل لحم الخنزير اكتساب صفاته اذ الاغذية لها تأثير على الاخلاق (راجع مقدمة ابن خلدون) وبالجملة فهذا المقام يحتاج الى كتاب على حدته ولا يسع هذا المجمل تفصيله ولكن لا بدَّ لنا من الماع يسير الى بعض آيات من القرآن تشبِّه اخلاق الانسان وصفاته ببعض الظواهر

السكونية زيادة على ما سبق كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فقد شبّه الاعمال بالزرع وتفطن ايها العاقل الى سبعمائة الحبة فكل واحدة منها كالحبة الاولى فلا تتناهى المضاعفات والله يضاعف لمن يشاء وكقوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } اى كمطر نازل من السماء حيث شبّه القرآن بالماء فالاول يحيي العقول والثاني يحيي الاجسام وكقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وهكذا مما لا يحصى من ضرب الامثال وشرح حال الانفس الانسانية بالآفاق الكونية لوضوحها وظهورها وتجسيمها ولما جهل اكثر الناس اسرار تلك الامثال وحقائقها لعدم معرفتهم تلك المضاهاة وانكروها اذ الناس اعداء ما جهلوا عيّرهم بقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ اذ هم الذين عرفوا الحقائق والمضاهاة بين الانفس والافاق .

﴿ المقدمة الثانية ﴾

اعلم ان هذا النهج الذى نهجته فى هذا الكتاب هو المقصود من التوحيد الذي هو نتيجة جميع العلوم العقلية والنقلية بل هو لذة الدنيا والآخرة بل ملك الانسان فى الجنة على مقدار علمه بذلك وفكره وذكره وجميع العبادات لا توصل الى تمام هذا الغرض الا اذا صحت الفكرة وكل له مقام معلوم

لا يعرف الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها

وموضوعه الموجودات كلها قديمها ومحدثها واجبها وممكنها فاندرجت فيه جميع العلوم وهو اشرفها فلا علم الذ منه وثمرته معرفة الله تعالى معرفة توجب الشعور باللذة الدائمة ولقد مزجت كلام الحكماء الاقدمين والعصريين بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية مصطفياً اللب نابذاً القشر

انما العلمُ كبحرٍ زاخرٍ فاتخذ من كل شيءٍ احسنه

وانما قلت فلا علم الذ منه لان العلم على حسب شرف
المعلوم ودوامه فكلما شرف الموضوع ودام عظمت لذة العلم
به والمقصود الاول هو ذات البارى تعالى وصفاته وافعاله
ونظرنا فى الطبيعيات وغيرها كالنظر فى المرآة المجلوة فليست
مقصودة لذاتها بل لغيرها ولا تظن اننا نقصر فى البحث فى
مسائل الطبيعة عن اكابر الطبيعيين كما ستراه ان شاء الله
تعالى. فهذا الكتاب يعطي كلاً ما يشتهيه بحسب استعداده
فمن قرأه لما فيه من المسائل العلمية رأى تحقيقاً ومن ابتغى
مع ذلك مشاهدة حكمة الخالق فيها فهو في علم وعبادة

كُلٌّ لَهُ غَرَضٌ يَسْعَى لِيُدْرِكَهُ
والحرُّ يجعل ادراك العلا غرضا

﴿ المقدمة الثالثة ﴾

من تأمل فى هذا العالم وكان ذا نظر سليم وجد ان الجمال
بادٍ على ظواهره تترقرق احاسن البهجة فى علوياته وسفلياته

فهذه الكواكب اللامعة ومحاسن الجوّ وبروقه والوان غيومه
ونغمات هوائه وجمال نباته ومحاسن حيوانه وبدائع انسانه
وضعها ذو الجمال الابهى الحكيم ليجتذب العقول الى البحث
عن اسرار ما وراءها من هذا الكون وما فيه من العجائب
الباطنة والمحاسن الكامنة كما قات

النجم اخبرنا بان وراءه * حكماً تدق عن العقول وتعظم

قال الله تعالى ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ﴾
وقال أيضاً ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وقال
ايضا ﴿ انَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلاً ﴾ وقال ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً ﴾ فكل جمال في الكون وضع لامر وراءه هو
المقصود ليتذكر الناس فالظاهر عنوان الباطن ولما كان اكثر
الناس معرضين عن ذلك التذكر عيّرهم الله بقوله ﴿ وَكَمْ
مِنْ آيَةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴾ ولننسج على منوال تلك الحكمة الباهرة ونقدم
فى كتابنا هذا النظر فى الجمال فى ملامح الكائنات لنجتذب

العقول الى البحث عما وراءها من الاسرار والحكم ثم نتبعه
بالكلام على الكائنات اجمالا وما المقصود منها ثم نذكرها
تفصيلا مقدمين العلويات على السفليات ثم النبات ثم الحيوان
ثم الانسان ويكون المفصل على طبق المجمل ثم الخاتمة وفيها
فوائد تناسب ما تقدم ان شاء الله تعالى من الفوائد العجيبة

الجمال في ملامح الكائنات

تأمَّل فيما تشاهد من جمال هذا الكون يدلك ظاهرهُ
على باطنه فان لهُ لحظات وحركات وملامح وخطرات تبدي
اشارات ورقائق ومعاني لذوي النفوس الشريفة والعقول
الكاملة وكلما سفلت النفس وضعفت وجهتها قصرت عن تلك
الوجهة العالية الشاملة لاحوال الملك كله ولنوضح ما أجملناهُ
ببعض لمحات هذه العوالم ليتبين مغزى ما نرمز اليه ونقدّم
مقدّمةً فى استدلال الانسان على البواطن بالظواهر فنقول :
لا جرم ان اكثر ادلة ذوى العقول مبنية على ظواهر الامور
كما يؤخذ ذلك من أحكامهم ومخاطباتهم وصداقتهم وعداوتهم

واقدامهم واحجامهم وحربهم وسلمهم وفراساتهم مقتنعين بان
الظاهر أثر الباطن ألا ترى الى حمرة الخجل وصفرة الوجل
فانهما دليلان على تأثر القلب وانصباغه بتينك الصبغتين فنحن
نحكم على ما غاب بما شُوهد اذ القلب تستحيل مشاهدته حتى
تُعلَم نواياهُ ومكنوناته واعتبِرْ هذا فى تقطيب وجه الغضبان
وانقلاب صورته وتشويهها وتغيُّر صوته وغصِّ ريقه واضطراب
حركاته وتبلبل لسانه واحمرار عينيه واستطارة شرر النار من
سائر أقواله وافعاله فكل ذلك دليل على ان قواه النفسية التي
هي مصدر هذه التقلبات شرٌّ مكاناً وأدهى وأمرّ كما قال صلى
الله عليه وسلم فيمن كثرت حركاته الظاهرة ﴿ لَوْ سَكَنَ قَلْبُ
هَذَا لَسَكَنَتْ جَوَارِحُهُ ﴾ ومثل من ذكر أرباب الصناعة
كالحدادة والنجارة واصحاب التجارة فما منهم الاَّ ولهُ سِحنة
مخصوصة وأحوال وحركات وأخلاق تناسب صناعته فتجد
غلظة الطبع في الحدادين وكثرة اللَّغط والمماكسة فى صغار التجار
وحبّ المشاحنة وملكة البذاءة فى المُكارين (الحمّارة) وهكذا
فما كانت تلك الظواهر الاَّ عنوانا على البواطن

وترى أرباب الفراسة يذكرون في كتبهم لكل شكلٍ
من اشكال الوجه والعينين والانف والرأس وحركات الانسان
وسكناته وآدابه مدلولات تدلُّ عليها تلك الهيآت حتى ان
اشكال الكف تدلُّ على أحوال الانسان واخلاقه المستقبلة وان
من يقهقهُ في ضحكهِ ضارباً بيديه مختبطاً فهو ذو طيشٍ وجهل
كما ان من يكون كلامهُ لطيفاً مشيراً الى ما يريد باحسن اشارة
فهو من ذوى الحكمة والعقل وهكذا مما لا يحصى — وترى
علماء الطب يستدلون بالنبض ودرجات الحرارة على مقدار
المرض الذى لا يُرى ولا يُسمع ولا — ولا — الخ وبتحليل البول
وهكذا يستدل القاضى بقول الشهود على حقيقة القضية ويبني
احكامه عليه فهذه كلها من الانسان استدلالٌ بالظاهر على الباطن
وبالجلي على الخفي وعلى مثل ذلك تدور احكام السياسة والحروب
في الدول الكبيرة والصغيرة ويحتدم الوغى ويحمى الوطيس
وتتقاطع الاصحاب بظواهر الاسباب ولو كانوا من اولى
الالباب وربما تحابوا بالمجاملة فى القول وحسن المعاملة الى
غير ذلك مما لا يكاد يحصى من أحوال الناس وقد اعتاد الناس

ان يعرفوا الصديق من العدوّ بسقطات اللسان ولحظات
العيون فان للكلام لحناً يفهمه أرباب الذوق قال تعالى لنبيه
صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَتَعرِفَنَّهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
الْقَوْلِ ﴾ وبذلك عرف صلى الله عليه وسلم المنافقين من
المؤمنين حيث كانت تبدو علامات البغض منهم للمؤمنين في
محاوراتهم وقال الشاعر

والعين تعرف من عينَيْ محدّثها
ان كان من حزبها او من أعاديها

فتبين ان الانسان بنى غالب احواله على ظواهر الامور
واعتبر بها بواطنها وعلى ذلك جرت جميع أموره الخاصة
والعامة وبذلك انتظم امر الدنيا ويشهد بهذا قوله تعالى
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ والمراد بهم اهل الفراسة
ونحوهم ومن هذا يفهم قوله تعالى ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ والمراد من الاثر الذي ينتج من الخشوع
الناجم عن السجود السكينة والوقار والرواء التي تعلوا وجوه
ذوى السجود فان الاعضاء بخشوعها ينعكس منها أثر على

النفس يصير لها ملكة راسخة وتشرق تلك الانوار على
الجوارح الظاهرة وتكون سمةً للانسان ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم (خَيْرُكُمْ مَنْ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ) وربما ظهر
لبعض النفوس عند رؤية ظاهر الكون وعجائبه بوارق تارة
يعبّرون عنها وأخرى يعجزون عن صوغها فى قوالب التعبير حتى
ان طوائف من العرب فى قديم الزمن كانوا يستدلون باشياء
يَرِدْنها على وقائع مستقبله كبني لهب قال الشاعر

خبير بنو لهبٍ فلا تك ملغياً
مقالة لهبيٍّ اذا الطير مرّتِ

ومنهم من يرد كل ولد لابيه بالسحنة الظاهرة والشمائل
الخفية ومنهم من يعرف قيافة الاثر وهو تتبع الآثار حتى
يُعرف ذووها وهو مشهور بين العرب حتى في زماننا هذا
وامر ربيعة واخوته الثلاثة وذهابهم الى ابن الافعى وما
شاهدوه فى طريقهم من آثار البعير الضال وما حكموا به على
رب المنزل امر مشهور فى التاريخ ومن الغريب ان منهم في
قديم الزمن من ترقوا من صغار الامور الى كبارها . حكي ان

اعرابياً سئل عن دليل الالوهية فقال (البعرة تدل على البعير
واثر قدم السير يدل على المسير وارض ذات فجاج وسماء
ذات أبراج افلا يدلان على اللطيف الخبير)

(فصل فى امتحان العقول بالجمال)

ولعمرى ان من تصفح هذا الكون فرآى نسمات
الاسحار وتغريد الاطيار وجمال الازهار ومحاسن الاشجار
وبهجة الانوار ورشاقة القدود ولطافة الاكياس وبهجة
الايناس لا جرم يدعوه ذلك الجمال الباهر والحسن الظاهر
الى الاعتبار بباطنها والخروج عن مضيق المحسوسات الى فسيح
العقليات فاذا أبصرت ايها الانسان شكلاً حسناً مشرق
البهجة جميل الطلعة آخذاً بمجامع قلبك فانظر لفؤادك فهو
الميزان فان رأيته وقف على ظاهر الجمال ولم يغُصْ فيما هو
ادق وأرق فاعلم انه لم يزل فى المحسوسات مع الحيوانات وان
رأيته اعتبر هذا الجمال سلّماً الى ما هو ارقى منه كالتفكر في
دقائق معانيه وحسنه الباطن فاعلم انه ارتقى الى أوج العقول
وكل عاقل تعتريه هاتان الحالتان فى أطواره فمن كانت أغلب

احواله فى الوجهة الثانية فهو الى الدوائر العقلية اقرب والى الملائكة ادنى ولنوضح ما اجملناه فنقول اذا رأيت انساناً جميلا وآنست فى النفس ميلاً الى ملامسته باليد والاقتراب منه فهذا هو النظر الحيواني المحرم على الاجنبي المؤدى للانسان الى حضيض البهائم اذ كل حيوان يعتبر اخاه بهذه المثابة فأين الفرق بين الانسان والحيوان

لولا العقول لكان ادنى ضيغمٍ
أدنى الى شرفٍ من الانسانِ

واذا رأيت النفس اخذت ترتقي الى تذكر الاخلاق الفاضلة الجميلة وتعشق معالي الامور وتتذكر ان هذا الحسن فى هذا الشكل أقلّ وأحقر من الجمال الباطني والاخلاق الحميدة والكمالات النفسية فهذا من النظر السليم الذي دعت اليه الآيات ودلت عليه الحجج أفأعجز ان اصقل مرآة نفسى بمحاسن الافعال حتى تشرق اشراقاً بهيجاً وانما أتيت بهذا المثال رمزاً الى ما وراءهُ والاَّ فهذا أقلّ ما ينبغى ان يختلج فى الضمير عند ذلك لارباب النفوس الشريفة

﴿ اعتبار ﴾

ألا فتنبهوا ايها العقلاء فانما الظواهر اشكال تنقضى وتفنى بل محاسنها لا تبقى لها الا مدة قصيرة ثم تأخذ فى الذبول بكِبَر او مرض او غيرهما وكثيراً ما يعترى الجمال غَبرة تَرْهقها قترة بالقعود على المشاحنات والرزائل ومساوى الاخلاق كما اشرنا الى ذلك اولاً من ان بين النفوس والصور مشاكلة

(فصل في ان الجمال في هذا العالم وسيلة الى امور اشرف)

واعلم ان الجمال فى هذا العالم لم يكن مقصوداً لذاته بل وسيلة الي امور وراءه أعلى واجل وكلما شرف الشيء وكان أعلى كان الجمال فيه اظهر فيجتذب النفوس الى ما وراءه وناهيك الكواكب التي هي أشرف ما يشاهد فقد جمل منظرها وحَسُنَ رونقها وابتهجت بها النفوس وانشرحت بها الصدور فبحثت العقلاء عن سيرها فى بروجها وحركاتها في منازلها لينتظم امر المعاش ثم اذا حولنا وجهة النظر الى ما على الارض من الزينة نراها بهذه الوجهة كذلك الا ترى ان جمال الازهار جعل بهجة لصغار الحشرات لتسرع اليه بحسن منظره الذي

شاقها فتشرب من رحيقه المختوم الذي يرى في أسفل الزهرة
وهناك يحصل القاح الاناث من الذكور بانتقال الحشرة الى
زهرة أخرى كما هو موضح فى علم النبات (اطلب كتابنا جواهر
العلوم) فاراد الحيوان بهجة النظر وأراد ربك المنفعة العامة كاحالة
العسل في باطن النحل مثلاً والقاح اناث النبات من ذكورها
ويؤيده ما قلنا ان الزهر الذي لا يحتاج فى القاحه الى صغار الحشرات
لا يكون فيه ذلك الجمال ﴿ صُنعَ اللهِ الّذى أَتقَنَ كلَّ شيءٍ ﴾
ومن هنا نفهم قوله عزّ وجلّ ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ عِندَنا
خزائنهُ وما نُنزّلهُ إلاّ بقدرٍ معلومٍ ﴾ فما احكم القرآن واتقنهُ
فاللهُ سبحانه وتعالى كما أتقن ملكه واحكم نظامه أحكم كلامه
وجعله رمزاً الى مصنوعاته ثم نقل النظر الى جمال الانسان
فترى انه يكون واضحاً فى النساء وفى اول حياة الذكور وتنعكس
الى الباطن فى كبارهم فانظر هذا الإحكام الباهر فان صغار
الذكور وصنف النساء تحت حياطة الرجال العقلاء فجمل ربك
لاولئك جمالاً ليجتذب عقلاء الرجال الى حياطتهم وكفالتهم
اما عقلاء الرجال فانعكس الجمال من الظاهر الى الباطن فيهم ولو

اجتمع الامران وكان الذكران كالنسوان لاختلَّت الموازنة التى
بُني عليها هذا النظام التام والإحكام العام فالرجال قوّامون على
النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض من العقل والعلم وما
خوّلهم من الاموال فبذلك يقهرونهنّ والنساء يغلبنَ الرجال
بجمالهنّ. وهذا من الموازين التى قامت بها السموات والارض
ولما كانت الشهوة الطبيعية لا بدّ لها من جاذب ظاهر وكان
ذلك ضعيفاً فى الرجال ضوعفت شهوة النساء حتى عظمت فيهنّ
وعكس ذلك فى الديك ودجاجه فلضعف شهوة الدجاجات
زُيّنَ ديكهنّ بانواع الريش الملون واعجب هو بنفسه حتى ضُرب
به المثل فى الزهو فقيل (أزهى من ديك) اما شهوته فقوية جداً
حتى انه لا يفرق بين السمينة والمهزولة من اناثه

﴿ جمال العلماء وأرباب السياسة ﴾

ثم نقل النظر ونجيل الفكر فيما هو أرقى من ذلك من
ارباب السياسة والعلماء والحكماء فانهم لما اتجهت اليهم
الانظار رؤيت عليهم سيمة البهاء والرونق وحسن الهيئة
ولذلك ترى علماء الاخلاق يعظمون امر النظافة جداً ظاهراً

وباطناً وبالغ ارباب النفوس السامية من الحكماء والاولياء
في تطهير نفوسهم من الرذائل وجعلوها محط انظارهم لعلمهم
ان جمالها هو الباقي لهم وجعلوا نظافة الثياب مقدمة لها فكان
نظرهم لها عرضياً لا ذاتياً ومقدمة لا نتيجة وعكس ذلك
ارباب السياسة والملوك وعظماء الدول فلذلك ترى النظافة
والجمال والبهاء والرونق والحسن باديا على ملابسهم وسُرج
خيولهم وعرباتهم وفرش منازلهم وبساتينهم فجعلوا لذلك المقام
الاول عندهم ثم اعتبروا أمور النفس عرضية وقل التفاتهم لها
فانظر كيف تشابهت الامور وسيقت الاشكال الى أشكالها
فانك ترى ان العلماء والحكماء لما كانت وجهتهم تطهير قلوب
الناس كانت قلوبهم لها المحل الاول فى الجمال والملابس تبع لها
وأرباب السياسة لما كان مبنى أمورهم على حكم ظواهر الناس
وقهر الاجسام لا العقول كان اهتمامهم بجمال ظواهرهم اكثر
منه بالنسبة لبواطنهم وبالجملة فكل جمال في الكون رمزٌ الى
امر وراءه أجمل واعلى ومنفعته اكمل اذ كله كما رأيت أُريد
به اصلاح الكون واتحاد النفوس على الاعمال والتشارك فكما

جُعلت الكهربائية لسرعة وصول الاخبار والاغناء عن البخار
فى سير القطار وإضاءة الانوار فى شوارع الامصار كذلك
جُعل الجمال لاجتذاب النفوس واتحادها على ما به نظام هذا
الكون واعلم انّ اكثر ما ذكرته فى هذا المقام هو مايفهمه
المتوسطون فى العلوم اما اكابر الرجال وعقلاؤهم فلهم من
الجمال معنًى يفهمونه غير ما ذكر لا يمكن التعبير عنه فى الاوراق
ويرونه هو المقصود الحقيقي وما عداه تبعٌ له

شيءٌ به فتن الورى غير الذى * يدعى الجمال فلستُ ادرى ما هو

﴿ نظرة عامة فى جمال الكون ﴾

من تأمل هذا العالم أعلاه وأسفله رأى الجمال والاشراق
والبهجة سارية فيه بحيث لا يرى ولا يتخيل الاّ العوالم التي
تزدان بما تبتهج به النفوس من المحاسن البديعة فبينما نرى اشراق
العلويات وضوءها وبريقها مرصعة فى جلابيب القبة الزرقاء اذ
تلوح لنا انوار الازهار المشرقة بين خضرة الاوراق المدهامّات
مشاكلة لتلك الكواكب فيالعجب كيف تشابهت صنائع

الرحمن ولم يحصل بينها تفاوت وكيف تقاربت بدائع هذه الأكوان
ألم ترَ ان زرقة السماء وخضرة النبات متقاربتان بل
متشابهتان والاضواء في كلتيهما مشرقة متلألئة متوهجة فكأن
الزرقة والخضرة اخذتا على الانوار المشرقة والجمال البهيج
عهودًا ومواثيق ان لا تفارقهما فتزدانا بها وسبحان الله ما
أجمل رونق الاشعة في اكناف هذين اللونين الجميلين جمال على
جمال وبهاء على بهاء لا سيما اذا تختمت انامل الاغصان بخواتم
طل الندى وتخلخلت سيقانها بحجال من فضة ورُصِّعت مناطق
الاشجار بجمان ابن السماء فتأخذ اشعة الشمس تغازل الافنان
الميَّاسة المائلة مع الهوى فتتناثر عقودها وتتدلى اقراطها فترفع
غواني الاغصان وقينات الافنان ومطربات الالحان رحيقها
المختوم فتشرب الاشعة شرب الكرام بلا ملام وكأنها تقول

شربنا وأهرقنا على الارض شربةً * وللارض من كأس الكرام نصيب

فاذا فعلت فيها الشمول وهبّت نسيمُ الصبا والقبول أخذت
الاغصان تعلو وتسفل وتذهب وتؤوب

فطورًا تجيءُ لضمّ القدود * وطورًا تميل لنظم العقود

وتارةً تراها يتعانقان ويتضامّان وكأنما الاغصان حين تشقق
حلل الظل الحسان شابٌ ظريف ولهان او نشوان اذا شرب
وطرب خلع على الندماء والخدم وارضى الخواص والحشم .
وكلما خلع على الاخوان والاخدان لبس من احاسن الحلل الوانًا
تأخذ بمجامع القلوب وتسحر لبَّ الفتى الطروب ألم ترَ الى الشاعر
الظريف حيث يقول

تأمل في رياض الارض وانظر * الى آثار ماصنع المليكُ
عيونٌ من لجينٍ شاخصاتٌ * على ورقٍ كما الذهب السبيكُ
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس لهُ شريكُ

ومع هذا الجمال كله لا ترى نسبة بين جمال الازهار وجمال
الكواكب السماوية فشتان ما بين الاشراقين فبينهما بعد ما
بين المشرقين وأين الثريا من الثرى واين منبع الانوار مما امتزج
من ماء وطين ونار فما الازهار الامزاج حاصل من تفاعل
اجزاء ارضية تشكلت بتقدير الحكيم العليم بهذا الشكل البهيج
القويم الذي جعِل حلياً للدوحات وزينة لرياض الجنات وبهجة
للناظرين ولذلك لم يتسنَّ للشاعر العربي ان يتخيل اشراق

الازهار فى خلال ظلمات الاوراق ويشبهها بالقمر الا بعد ان
مثّل فى نفسه اشراق الشمس عليها حيث قال

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما * تريا وجوه الارض كيف تصوَّرُ
تريا نهارًا مشمسًا قد زانهُ * زهرُ الربا فكأنما هو مقمرُ

ولعمري كيف تضارع البساتين وجمالها وبهجتها جمال السماء
ودراريها المرصعة فى اكنافها ولعلك تقول انك اطنبت فى
تفضيل جمال السماء على الرياض الغناء ومالنا نرى الابصار ليست
تتجه اليها ولا تعوّل النفوس عليها ومن ذا الذى اعجب بالسماء
واستغنى بالنظر اليها عن البساتين النضرة والخضرة الحسنة
اقول لم يصرف الابصار عن السماء الا جعلها شرعة لكل
وارد وبذلها لكل ناظر وتمنع البساتين واختصاصها بقوم
دون آخرين وأحب شيء الى الانسان ما مُنعَ فجمال الدرارى
الحسان فى السماء اعظم جمال وابهى وابهر وما أقدر هذا الصانع
الحكيم على اتقان الصنعة وكيف اخرج من هذه العناصر
المعتمة المظلمة الميتة انوارًا مشرقة وكيف يشتق النور من الظلمة
والحيَّ من الميت والنامى من الجماد حتى كادت الازهار تضارع

مشرقات السماء فجعلها زينة الارض كما جعل تلك زينة السماء
قال تعالى ﴿ انَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ وقال
﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ ولكن لا عجب فى
ذلك فانه فعل القادر المالك فقد اخترع ابدع من ذلك واجمل
ألاَ وهو عالم الارواح الذى أسكنه في هذه الامزجة الطينية
لتشاكل الملائكة السماوية والعالم الاعلى فكما ازدانت النباتات
بالازهار لتضارع الارض السماء كذلك ازدانت النظامات
الارضية بانوار العقول لتشاكل فى ترتيبها النظامات العلوية
الجارية على نسق واحد وطراز معلوم وكذلك نرى العقول ترتاح
الى النظام وحسن النسق اشدّ الارتياح فيُحكم العقلاء نظام كل
شيء كنظام صفوف الجند واعتدال الطرق وهندسة الشوارع
وتنظيم البساتين كل ذلك مشاكلة للنظام الالهى فى السموات
والارض ولذلك لا ترى احدًا الا ويرتاح لسماع الشعر والسجع
المتقن وتغريد الطير ذى اللحن الحسن ونغم الالحان وما ذلك
الاَّ للنسق المنتظم في جميع ذلك وهذا بحرٌ لا ساحل لهُ ومن
وقف عند نظر ظاهر الانوار والجمال ولم يعتبر ما وراءه

ولم يقس الخفى على الجلى والباطن على الظاهر والمعقول
على المشاهد فذلك ممن لم يخط خطوة في المعقولات ولم يرح
رائحة الكمالات وهو في ظلمات الجهالات فكل هذا العالم
جمال في جمال فياليت شعري ما للعقول منصرفة عن هذا الجمال
الى الطمع في الماديات التي ليس لها بقاء بل هي سريعة
الدثور والانحلال والبوار وليس لها قرار ولذاتها مشوبة
بالنقص معرضة للخطر قليلة الجدوى فاما التفكر في أنواع
هذا الجمال فانه لذة دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ولا
تصل اليها أيدي الطامعين فمن اضل واجهل ممن يجعل عقله
وقفاً على الماديات التى بازديادها تزداد الهموم والاكدار
وتستعر في الافئدة آلام النار وبئس القرار فكلما القمناها
حطب حطام الدنيا احرقته وازداد سعيرها وبلغ لهيبها عنان
السماء وقالت هل من مزيد فوقعت في هاوية لا آخر لها ولا
مردّ لمنتهاها وهذا هو سجن الأبد سجن الافكار السافلة الضعيفة
اللهمّ الهمنا فكراً عالياً ونظراً صحيحاً وجمّل قلوبنا بالنظر

في مصنوعاتك وجمالها وافتح بصائرنا للاعتبار حتى نعرف
ما وراء هذه المحسوسات من الغرائب والبدائع

(رموز الحركات في الكائنات)

وكما نرى فى الجمال اشارات وحكماً كذلك نرى فى حركات
هذه العوالم كلها رموزاً واشارات دالآت على لطائف
يرتاح لفهمها أولوا الالباب وذوو العلوم والآداب وكلما قلّ
علم الانسان وفهمه ونقصت قريحته ضعف فرحه بما يشاهد
من جمال وكمال فى الكائنات وكلما كان اكثر اطلاعا واوفر
عقلاً وأسمى نظراً واصحّ فراسة وأجمل ادباً كثر فرحه وازدادت
لذته بهذه العوالم البهجة الجميلة ومن ذا الذي لا يهيم وجداً ولا
يطير شوقاً اذا سمع نغمات الاوتار وغناء الاطيار ورأى بهاء
الانوار وحسن الازهار وحركات أغصان الاشجار . ومن لم
يحركه العود وأوتاره والربيع وازهاره فهو فاسد المزاج يحتاج
الى العلاج . ومن لم تصبُ نفسه الى هذه المعانى ونيل المعالي
بعد هذا البيان فليعالج نفسه بعقاقير التعلم والتفهم وتصفية النفس

حتى يبرز له مكنون هذا الجمال على صفحات الوجود ويعقل
رموز تلك الحركات ففي اختلافها بالسرعة والبطء والخفة
والثقل لمحات يعقلها ذوو الاذواق اللطيفة والنفوس الجميلة
فكم من اشارة أغنت عن عبارة ولمحة ناظر أغنت عن علوم
الدفاتر ولعمرك ما كل ما تملي عيون الظبا يروى فكم فى طي
الرموز من معان تعجز البلغاء عن تصويرها فى قوالب العبارات
فحركات الكائنات تخط على صفحات الوجود دقائق معانٍ
بديعة ليس يقرؤها الا الذين اكتحلوا باثمد الزرقاء فلم تحجب
الزرقاء ولا الغبراء ما وراءها عن بصائرهم كما لم تحجب الاشجار
ما وراءها من الرجال عن بصر زرقاء اليمامة حيث قالت

انى أرى شجراً من خلفه بشر * فكيف تجتمع الاشجار والبشر

ويا سبحان الله كما جرى الاختلاف فى الابصار الظاهرة
جرى أيضاً فى البصائر الباطنة فكما ان أغلب ذوى الابصار
تحجبهم الاشباح عن ادراك خفايا ما وراءها كذلك أغلب
ذوى العقول يقفون عند الماديات ولا يفهمون لمحات هذه
الكائنات وحركاتها وكما ان النادر من ذوى الابصار كزرقاء

اليمامة يخترق شعاع بصره ما وراء الشبح المقبل ويدركه
ادراكا تاماً كذلك نرى النادر من ذوى البصائر تخترق قريحته
سحب هذا الكون وحجبه ويفهمون رموز حركاته ولمحاته
ولقد سمعت من ذلك العارف بالله وهو يخطب يقول ان
الاكوان ظلال لا تحجب العارف ان يخترقها بسفن المعرفة
الجارية في بحار العلوم وانما يحجب بتلك الظلال الجاهلون
الذين حرموا من مشاهدة ذلك الجمال الاقدس .اه. وكم من رمز
فى اطيط السماء وغطيط الارض وخرير الماء وزئير الاسد
وهدير الحمام وتغريد الطير وهبوب الرياح وهبيب البهائم
وكشيش الهوام ونشيش القدر وصهيل الخيل وشحيج البغال
ورغاء الاغنام وصرير الاقلام وزفير النيران وعجيج الرعود
وطنين الذباب ورنين القسى وحنين النياق كل ذلك اعراب
عن معانى ما وراءها من الإحكام الغريب والاتقان العجيب
وعلى وحدة المبدع وحكمته وعظمته اذ لم تتم هذه الاصوات
وتتنسق هذا النسق العجيب الا بعد شروط كثيرة وأوضاع
مخصوصة وأغذية وامزجة ومعدات لا يمكن الوقوف على

تفصيل عشر معشارها يعرفها من درس العلوم لا سيما التشريح
منها اذا كان له قريحة وقادة ويا للعجب انا نرى أصوات هذه
الحيوانات متجهة لمقصود واحد وهو نظام الجسم بدفع المنافر
وجلب الملائم كما ان مقصود هذه العوالم كلها واحد وهو
النظام العام وهذه اشارة الى وحدة المبدع الحكيم واظهر من
هذا كله انا نرى الاطفال وجميع انواع الحيوان اذا دهمها امر
اوحلّ بها كرب رفعت رءوسها الى السماء كانه ارتكز فى فطرتها
التى فطرت عليها ان جهة العلو هي مركز الرحمة والرأفة بل
كافة أصناف النبات وجهتها السماء على كل حال فكأن
الاجسام النامية متحدة الوجهة الى العلو

وقد دلت الدلائل ان الفطر جميعها صادقة فما رأينا فينا
فطرة منغرسة دائمة الاّ ولها نبأ عظيم وتحتها سرّ كبير الا ترى
شهوة الغذاء والغضب والولوع بالغرائب المتجددة وغير ذلك
فلعمرك ما خلقت الا لامور عظيمة فكذلك هذه الفطرة
وهي اتجاه الحيوان عند الشدة الى السماء مع ان الجهات ست
فلم تكن هذه الفطرة الا لاستشعار كل ذى روح بان له صانعاً

يمدّه في كل آن بما يحفظ حياته ويبقى جسمه ويمنع عنه الآلام
والاسقام ولما كانت كلها مركبة من جسم وروح وغلب الاول
على الثاني وكانت السماء هي العلو بالنسبة للجسم الغالب
والخالق جلّ جلاله وعزّ كماله هو العلوّ المناسب للارواح
كانت وجهة كل الحيوانات ما يناسب اجسامها الغالبة لا رواحها
الضعيفة فكأن شخوصها الى السماء رمز الى ذى الجلال والاكرام
والاّ فليس له مكان ولا يحويه زمان والعلوّ والسفل امر نسبي
فربما كان المكان لرجل سفلا ولآخر علواً كما هو مقرر في
محله ولا تظن ان رفع الايدي الى السماء وقت الدعاء الا
لتتجه النفوس الى الجهة التي فطرت عليها منذ نشأتها ليكون
اقرب الى الاجابة اذ القصد الوسيلة الى اتجاهها وهي متى
صدقت وجهتها استجيب دعاؤها بلا مرية ومتى رفع الطرف
الى السماء ومدت اليها الايدي كان أقرب للاجابة لموافقة ذلك
لفطرة النفس التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله
ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقلب طرفه في السماء عند طلب
القبلة كما قال تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك

قبلة ترضاها فولّ وجهك شطرَ المسجد الحرام وحيثما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره ﴾

اورّي بسعدى والرباب وزينب * وانت الذي تعني وانت المؤمل

وقال تعالى ﴿ فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم ﴾ ولنمسك عنان القلم اكتفاء بهذا القدر ففيه غنى لاؤلي الالباب

﴿ أخلاق وآداب ﴾

رأيت ايها العاقل جمال الاشجار وحسن شكلها وروائحها العطرية وهي لم تخلق الا لك فانت اشرف منها فحافظ على نظافة بدنك وثيابك بالاغسال الشرعية من الوضوء والغسل ونظف ثيابك واكثر من العطر وخفف مأكلك حتى تكون دائما بساماً منشرح الصدر لطيفاً حسن السمت والصورة واعلم انك لا تنال انشراح الصدر الا بما ذكر . وتوجه بقلبك الى عبادة الخالق فى بعض الاوقات ولتكثر من الاغتسال واعلم ان العلماء ذكروا فى الفقه انه يسن الاغتسال عند كل اجتماع ولو مباحاً كالاجتماع مع الاخ والاب والصاحب وغير ذلك

ونظف قلبك بالطهارة الباطنية من حقد وحسد فان ذلك يشوش عليك لذتك ولا يسود صاحبه قال عنترة

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب * ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وقال غيره

طهر فؤادك من حقد ومن دغل * فشر داء يضر القلب داؤها

واعلم ان الطهارة الظاهرة مقدمة للباطنة وهى المقصودة على الحقيقة ولارتباط الاولى بالثانية قال علماء الاخلاق فى زماننا ان اكثر من يدخلون السجون هم وسخو الثياب قذرو الملابس وقال سيدنا الامام الشافعى رضى الله عنه (من نظف ثوبه قلّ همه ومن قل همّه زاد عقله ومن زاد عقله كثر فهمه) ومن العجيب ان قدماء المصريين كانوا يغتسلون كل أربع وعشرين ساعة مرتين فتأمل وقارن هذا بما جاء فى شريعتنا من انه يسنُّ تكرار الاغتسال دائما عند الاجتماعات واعلم ان الانسان متى نظف ظاهراً وباطناً كان كشجرة يستظل بظلها ويؤكل من ثمرها ويشتم ريحها ولقد قال صلى الله عليه وسلّم (مثل الجليس السوء كمثل الكير ان لم يحرقك بشرره علق بك

من ريحه . ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ان لم
يهب لك منه تجد ريحه) رواه فى الاحياء وقد قيل مثل جملة
الناس كمثل الشجر والنبات فنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل
الذي ينتفع به فى الدنيا دون الآخرة ومنها ماله ثمر وليس له
ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ومنها ماله ثمر
وظلّ جميعاً ومنها ماليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق
الثياب ولا طعم فيها ولا شراب ومثله من الحيوانات الفارة
قال الشاعر

الناس شتى اذا ما أنت ذقتهم * لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته * وذاك ليس له طعم ولا ثمر

﴿ جوهرة ﴾

قد بان لك مما تقدم جمال الكائنات ولعله شاقك
الى البحث عن حقائقها فها أنا اذكرها لك اولا اجمالاً مع بيان
المقصود منها ليرتسم فى ذهنك ثم اذكرها مفصلة على حسب
ترتيبها فى المجمل باحثاً عن الميزان الذي قامت به السموات
والارض على حسب الامكان

﴿ ذكر العالم اجمالاً وما المقصود منه ﴾

تأمّل أيها اللبيب فى ما تراه من هذا العالم واجل نظرك فيه
لتعرف ما المقصود منه وما الذي أريد بهِ فانهُ لا يتصوَّر ان
يخلق عبثاً مع هذا الاتقان البديع والاحكام وهذه مسألة اشتغل
بحلها كثير من فلاسفة العصر الحاضر وأكابر الفلاسفة
الاسلاميين . ولقد نظرت فى كلام الفريقين الخاص بهذا
الموضوع فعلمت سبق القدماء فى مضمار الحقيقة وتأخر المتأخرين
وتحيرهم واضطراب اقوالهم وتباين آرائهم وقول بعضهم باستحالة
معرفة الحقيقة واليك مقالاً وجيزاً معرباً عن الحقيقة فقلت
من تأمل فى هذا العالم عرف بالبداهة ان له غاية وثمرة وانه
يستحيل ان يكون خلق عبثاً وباطلاً ﴿ وما خلقنا السماء
والارض وما بينهما باطلاً ﴾ فلم يبق الا البحث عن تلك الغاية
بطريق عقلى حتى تظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار . فلننظر
اولاً الى الاجرام الاثيرية مثل الشمس والقمر والكواكب
المنظّمة البديعة المحكمة وجمالها الباهر وضوئها الظاهر
وحسابها المتقن وسعتها وحيرة العقول فى كنهها وعظمها

نجدها من حيث ارتباطها بالعالم السفلى خادمة له مما على
الارض من معدن ونبات وحيوان وانسان حيث ترسل لها
أشعة النيرات وحرارتها لتصلح نباتها وحيوانها وغير ذلك

ثم اذا نظرنا ما على الارض من تلك المخلوقات الاربعة
نجد ان المقصود منحصر فيها ثم اذا نظرنا للمعادن نجد بعضها
يجعل اوانى كالنحاس وبعضها آلات بخارية واخرى قتالة
كالحديد والرصاص وبعضها حُلِيًّا ونقوداً كالذهب والفضة
فالمعدن اذاً خادم للنبات والحيوان والانسان اذ تصنع منه
الآلات ولا تقوم هذه الثلاث الا بها فاذا ليس هو المقصود
واذا نظرنا للنبات رأيناه غذاءً للحيوان والانسان فليس مقصودًا
واذا نظرنا الى الحيوان نجده مسخرًا للانسان ﴿ فمنها ركوبهم
ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ وحينئذ يجب
ان يكون ذلك المقصود وتلك الغاية هو الانسان لا العلويات
لانها خادمة للسفليات وممدة لها ولا المعدن لانه وان كان
مخدوماً للعلويات فهو خادم للنبات والنبات غذاء للحيوان
والحيوان كله مسخر للانسان كما قدمنا ولذلك قلنا ان المقصود

من هذا العالم هو الانسان

﴿ النظر فى الانسان ﴾

وهنا يندهش العقل وينبهر الفكر فيما قصد منه .
اذ لا يصح أن يكون القصد منه شكله الظاهر كحسنه واعتدال
قامته وتقويس حاجبيه وتورد وجنتيه ولحمه وعظمه وعروقه
فان ذلك كله من الاجزاء الارضية ومصيره اليها وقد قدمنا
انها ليست مقصودة فوجب اذن ان يكون المقصود منه غير
ذلك الا وهو *صورته الباطنية* وهى الارادات الغالبة على النفس
وهذه الارادات لا تنحصر . فمن الناس الجاهل والعالم والتقى
والفاجر والصالح والطالح والشرير والخيّر والخبيث والطيب
والشره والعفوف والطامع والقانع والمولع بزخرفة المنازل
والزاهد والمغتر بالرئاسة وقهر الخلق والخاضع وغير ذلك ويجمع
ذلك كله ثلاث قوى — القوة الشهوانية والقوة الغضبية والقوة
العقلية . فانحصر المقصود من هذا العالم كله فى هذه القوى الثلاث

﴿ الكلام على القوة الشهوية ﴾

لكننا اذا نظرنا الى القوة الشهوية نجد حاصلها يرجع الى المطاعم

والملابس والتزاوج فالمطاعم والملابس لبقاء الشخص والتزاوج
لبقاء النوع وقد شارك الانسان في هذه القوة جميع الحيوانات
على اختلاف طبقاتها بل ظهر بالاستكشافات الحديثة ان جميع
النباتات فيها هذه القوة تامة أيضاً فشهوة الغذاء ليست مقصودة
لذاتها بل خادمة للقوتين الاخريين والخادم مقصود لغيره لا لذاته

﴿ الكلام على القوة الغضبية ﴾

واذا نظرنا الى القوة الغضبيه نجد ان حاصلها يرجع الى
تسلط الانسان وقهره لغيره من أبناء جنسه او ان
يكون باطشاً فتاكا الى غير ذلك الا ان صاحب هذه القوة
يرجع الى ذوى العقول السليمة ولا يضبط ملكه اذا كان
ملكاً الا بالسياسة والآداب التي يمده بها اكابر دولته
وعقلاء أمته وعلماؤها وايضاً قد شارك الانسان فى هذه
القوّة الاسد والحيوانات المفترسة فان لها أعظم سلطان واقوى
قهر حتى ان الاسد اذا حط عصا التسيار بواد لم يبق فيه
حيوان قوى او ضعيف الا هرب منه اذ تنهلع قلوب اقويائها
لرؤيته فضلاً عن ضعفائها فاذن ليست قوّة الغضب هى المقصودة

لشيوعها فى الانسان والحيوان (وقد حصرنا المقصود فى
الانسان كما تقدم) ولانها تابعة لاشارة العقل منقادة له
والمتبوع اشرف من التابع فلم يبق الا القوة العقلية

﴿ الكلام على القوة العقلية ﴾

وقد قلنا ان القوتين المتقدمتين خادمتان لها وتابعتان لاشارتها
والمتبوع أشرف من التابع وعليه نقول ان المقصود من هذا
العالم كله هو العقل * ثم للعقل وجهتان وجهة بها تحصيل قوام الحياة
كالمطعم والملبس والمسكن والرئاسة وتوابع ذلك ووجهة الى عبادة
الخالق وتقديسه ومعرفة جماله وجلاله وبهائه وحكمه فى ملكه
وملكوته * وبديهي ان الوجهة الاولى ليست مقصودة والا
كانت النتيجة مقدمة . وتوضيحه انا اعتبرنا قوّة الشهوة والغضب
مقدمتين للعقل خادمتين له اذ بهما بقاء الاجسام التى هي
مركب العقل فاذا جعلناه مقصوداً لهما صار مقدمة وهما نتيجتان
وهو فاسد لانه يقال لِمَ نأكل فيقال لنعيش ويبقى جسمنا ويصح
عقلنا ونتفكر ثم يقال ولم نتفكر فيقال لنأكل ونعيش فتكون الحياة
كدورة السواقي

كانها دائرة * اولها آخرها

فثبت ان المقصود من هذه العوالم كلها هم العارفون
بالله سبحانه وتعالى المتحققون بجماله وجلاله وكماله
وملكه وملكوته وحكمه وبدائع صنعه وكل هذه العوالم
خدم لهم لانهم ترقوا بتلك القوة الى عالم آخر يناسبهم لظهورها
هناك ﴿ وأنّ الى ربّك المنتهى ﴾ ومن هنا يفهم قوله عز وجل
﴿ وماخلقتُ الجنّ والانسَ الا ليعبدُونِ ﴾ وقوله ﴿ اللهُ الذي
خلقَ سبعَ سمواتٍ ومنَ الأرضِ مثلهنّ يتنزّل الامر بينهنّ لتعلموا
ان اللهَ على كل شيءٍ قدير وان اللهَ قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً ﴾ واجمال
القول ان العالم من عرشه لفرشه خادم الانسان وجميع قواه
خادمة لعقله فقوّة الشهوة والغضب وتوابعهما من المطاعم
اللذيذة والملابس اللطيفة والمراكب النفيسة والزينات الباهرة
والزخارف الظاهرة والقهر والغلبة ونفوذ الكلمة كلها خادمة
مخلوقة له ولذلك ترى العقلاء اجمعوا على وجوب استشارة
العقل فى كل حركة وسكون وصغيرة وكبيرة من الاعمال فان
عصى العقل واستشير الهوى واستبدت كل قوة بما تحت

امرتها احلت بصاحبها الويل والثبور وعدّ فى حياته من أهل
القبور ومتى خضعت القوى كلها للعقل فامر ونهى ولم يعص
امره وخلصت النفس من الرعونات والرذائل واتسمت بالعفة
والشجاعة والحكمة والعدل التي هي امهات الاخلاق استعدت
لقبول الكمالات من العلوم والمعارف الآلهية فكل ماذكره
علماء الاخلاق والدين من الكرم والسخاء والحياء وعلو
الهمة والنجدة والعفة والعدل والصبر والشكر وغير ذلك وما
اشاروا اليه من العبادات كالصلاة والصوم والحج والتضرع
الى الله عز وجل معدات لتفريغ النفوس من الشواغل البدنية
والولوع والشوق الى تلك الحضرة العلية حتى تصفو لتنطبع
فيها المعارف الآلهية وهناك منتهى اللذات وغاية الكمالات

فملوك الارض القاهرون وفراعنتها المتألهون وقياصرتها
الغالبون واكاسرتها السياسيون وعظماؤها المتكبرون واغنياؤها
المترفون لم يدرِ الفلك من أجلهم ولم يخلق الملك لجلهم اوكلهم
ولم يقصدوا من هذا العالم وانما هو شجرة هم اغصانها
والاغصان مقصودة لغيرها وهو الثمر وثمر شجرة الكون

العلماء العارفون • ومن ذكرناهم في الحقيقة خدم للعالِم ولذلك
تراهم يقبّلون يديه ويُقبِلون عليه ويعظمونه ويجلونهُ كأن
نفوسهم معترفة بفضله مذعنة بقصورها في قصورها وذلك
ربما اوجب دهشة وحيرة حيث يقال كيف تجعل هـذه
العوالم المشاهدة من علوي وسفلي خدما لاقل جزء منها وما
نسبة ذلك النزر اليسير اليها (وهم العلماء) الا كالقطرة من البحر

أقول ان هذا ليس بدعا في النظام فان من تأمل في الاحوال
الطبيعية علم اطراد هـذه القضية الا ترى ان ساق الشجرة
وفروعها الضاربة في الارض وأغصانها وأوراقها وأزهارها
وقواها الظاهرة والباطنة انما غايتها الثمرة وهي قليل بالاضافة
الى ذلك كله . وهذه الممالك والدول الصغيرة والكبيرة
تصرف الاموال الطائلة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
على ألوف مؤلفة من التلامذة ولا ينال الشهادة العليا منهم الا
الاقلون اما من عداهم فكل ما استعد له فهكذا جعلت الحياة
الدنيا كمدرسة ليترقى فيها نوع الانسان ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا
عملوا﴾ ولا يصل الى النهاية المقصودة الا من ذكرنا وقليل

ماهم وقد سمعت ذلك العارف يقول (ما عرف الله من لم
يتغلغل في العلم به ودون العلم به كل مبذول ومضنون)

﴿درجات اللذات﴾

قلنا ان بهجة الانسان وأنسه ولذته وكماله بالعلوم الحقيقية
والمعارف العالية وبرهان ذلك ان كل شيء من حيوان
وانسان لذته في كماله الخاص به وخاصية الانسان التي ميزته
عن الحيوان هي العلم والمعرفة فلا لذة ولا بهجة اعلى ولا أجمل
منهما ومتى عرفت حقائق هـذه العوالم بوجهة خالقها من
حيث كونها آثار كماله وافعاله كانت أعلى عبادة وأجلها
وألذها ﴿وما يعقلها الا العالِمون﴾ ولا يذوق هذه اللذة الا
الاقلون والكمّل الراسخون واعلم ان اللذات كلما كانت مشتركة
بين طوائف كثيرة من العالم كانت ضعيفة في الذوق
والنفوس بها أقل ابتهاجاً واضعف وكلما قل الاشتراك فيها
واختصت بها طوائف قليلة عظمت بهجة النفس بها واشتد
الشوق اليها ولذلك كان ادنى اللذات واضعفها ما اشترك فيه
الانسان والحيوان بل والنبات وهو قوة التغذية والتناسل ثم

لذة الغضب اقوى منها وارفع اذ لم تكمل الا فى الانسان
وبعض الحيوان كالسباع ولذلك ترى الملوك وأرباب المناصب
السامية يحقرون كل لذة ويضحون كل شهوة فى سبيل تحصيل
القهر والغلبة . كما حكى عن بعض الملوك الامويين انه بات
يقلب كف جارية له من أجمل اهل دهرها فقالت له وما يمنعك
يا أمير المؤمنين فقال يمنعني قول الشاعر

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

وعن بعض ملوك الفرس انه كان يعشق جارية عشقاً
مفرطاً حتى انها كانت تركب وراءه وقت الصيد فى الخلاء
فاقترحت عليه ما كاد يعجزه من فنون الاصطياد فجعل يمزق
جسمها بحوافر فرسه عزة وأنفة وغيرة. على جلالة منصبه
وسلطانه وقوته اعني انه ضحى لذة الشهوة فى سبيل لذة
الرئاسة والعزة . ثم ان لذة العلم ارفع منهما (التغذية والغضب)
وأقوى لانها خاصة بالانسان دون غيره فالعلم لا يطلبه الا
إفراد قليلون ومن ذاقه عرف لذته ونهج سبيله وسهر ليله
وكدح نهاره في طلبه وقد انقطع لذلك كثير من الملوك

والاكابر كما هو مسطر في التواريخ قال بعض العلماء لو عرف
الملوك ما نحن فيه من اللذة لقاتلونا عليها بالسيوف وهذه
الطائفة تعتبر نفسها اشرف من الملوك وارفع منهم قدراً

سئل ابن المبارك مَنِ الناس قال العلماء ولم يجعل غير العالم
من الناس لان الخاصة التى بها يتميز الانسان عن سائر الحيوان
هى العلم كما قدمنا فالانسان أشرف من الحيوان بالعلم لا بقوة
شخصه فان الجمل أقوى منه. ولا بعظمه. فأن الفيل اعظم منه.
ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا باكله فان الثور أوسع
بطنامنه. ولا بملابسه فان الطاووس اجمل بهجة منه فالقوة
والعظم والشجاعة والاكل وغيره تفنى بموته والعلم هو
الباقى له بعد الفناء فبه يصير ملكاً كريماً منعماً فى مقعد
صدق عند مليك مقتدر يتلذذ بما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر

ما الفضل الا لاهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه * والجاهلون لاهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً * فالناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ أخلاق وآداب ﴾

تأمل وادخل معي في البحث بعقلك ولا تقلد اكثر الناس ﴿وان تُطعْ اكثرَ مَنْ في الأَرض يُضلُّوكَ عن سبيلِ الله اِن يتَّبعُونَ الاَّ الظنَّ واِن هُم إلاّ يَخْرُصُون ﴾ فالعمر قصير والامل طويل فقصر أملك وخف على العمران ينقضي قبل ان تصل الى المقصود واعلم ان الانسان ثمرته الحقيقية هي العلم بحقائق الكائنات من حيث صدورها عن مبدعها واما سياسة الاسرة والمدينة باجمعها وجميع القوى الظاهرة والباطنة فمقدمات لتلك القوة وحدها فالانسان كالشجرة يراد منها الثمرة التي لا تتم الا بالفروع والاوراق والازهار وغير ذلك ولا يهولنك الامر فالعين مع احكامها العجيب لم يقصد منها الا عرضٌ فيها وهو الابصار وانت أُريدَ منك العقل وتلك المعرفة لا غير وكل شؤون العالم مقدمة فاقصد التقرب لصاحب هذا الابداع بجميع اعمالك المنزلية والخارجية قال عليه الصلاة والسلام ما معناه فى الجامع الصغير (كل ما أنفقه المؤمن فهو له صدقة حتى ما يجعله فى في امرأته) اى فى فمها اذا كان

قصده وجه الله تعالى وذلك لا يتأتى الا بكثرة النظر فيما ذكرنا ونحوه مع التعقل والفكر الدائم

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

واعلم ان العقلاء قليلون وسواهم يقصدون مقاصد ادنى من هذه كلذَّة الرئاسة والملابس وزخرفة المنازل وشهوة الطعام وكلها مقاصد ساقطة فافهم وتأمل قوله تعالى ﴿ فأما الانسانُ اذا ما ابتلاهُ ربُّهُ فاكرمَهُ ونعَّمهُ فيقولُ ربي اكرمَنِ ﴾ الى قوله وادخلي جنتي

(الكلام على تفصيل هذه العوالم كلها وذكر الميزان الذى قامت به)
(السموات والارض مع كل واحد منها على ترتيب ما اجملناه)

اعلم ان مادة الميزان ذكرت فى القرآن فى مواضع كثيرة قال الله عز وجلَّ ﴿ والأرضَ مددْناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ شيءٍ موزون ﴾ وقال ﴿ ونضع الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ ﴾ وقال والوزنُ يومئذٍ الحق ﴾ وقال تعالى ﴿ الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ والنجمُ والشجرُ يسجدانِ والسماء

رفعها ووضعَ الميزان ﴾ وقال ﴿ اللهُ الذى أنزلَ الكتاب بالحقّ والميزانَ ﴾ الآيات وذهبَ العلماء فى تفسيرها الى مذاهب شتى فبعضها عام وبعضها خاص واشملها مقالاً واعمها متناولا ما أشار اليه حجة الاسلام الغزالي من انّ الميزان القسط والعدل الذي قامت به السموات والارض فما من ذرة فى سماء او ارض ولا جماد او حيوانٍ الا وأسست بميزان وفطرت بعدل ووضعت بقسط فاشكال الاجسام وصورها وألوانها وطبائعها ومقاديرها وقواها وحركاتها وسكناتها واظلامها واضاءتها واتجاهاتها وحرارتها وبرودتها وملاستها وخشونتها ولينها وصلابتها وثقلها وخفتها كل ذلك بميزان عدل ولولا ذلك لاختل النظام وفسدت الاحكام وحال الحال فالميزان عبارة عن العدل العام والنظام التام فى السموات والارض والاحكام والقوانين الموضوعة فى هذه الكائنات العلوية والسفلية ولعمرى لا يعرف بعض تفصيلها الا من أخذ من كل فن طرفا حتى ارتسم فى ذهنه قوانين علم الفلك وغيرها فعرف نظام الكواكب وسيرها ونظام الارض والقوة الجاذبية التي أودعت فيها وما

ترتب عليها حتى يتبين له انها اس الموازين المتعارفة بين الناس وعلم المعادن والجبال والانهار والبحار والهواء والسحاب والنبات والحيوان والانسان ليتبين له مقاديرها وخواصها وقواها وان لها مقادير لا تتعداها واشكالاً وصوراً وقوى لا تتخطاها فانظر ايها الذكي اللبيب الى العلويات تراها سائرة على محور العدل والنظام دائرة فى بروجها ذاهبة آيبة بحساب محكم عجيب وهي مع كثرتها وانتشارها في الفضأ الواسع الذى تراها فيه حفظت فى مراكزها ودارت في دوائرها وكم ذهبت امم واجيال وطاحت اعمار وآجال وكرت دهور وفنيت عصور ولم يصطدم فيها نجمان ولم ينتطح عنزان مع ان الكبير منها يجذب الصغير كما هو معلوم من قوانين (نوتون وكيابير) فقد اثبتا الجذب العام الذي هو قوة تنقاد لها جميع الاجسام السماوية وتتأثر بها والتثاقل الذى تراه على سطح الارض نوع منها فكل من هذه الكواكب لا يتخطى دائرته دائراً بتقدير معلوم وحساب مفهوم فهل رأيت الشمس اشرقت قبل الاوان او القمر ظهر قبل الأبان لا بل ﴿ الشمسُ والقمرُ بحُسبان ﴾

وكذا كل كوكب سيره فى دائرته بقانون خاص به فانظر
ايها العالم فيما تشاهد من اتقان صنائعنا التي هى نتيجة اعمال
من لا حصر له من البشر فى الازمنة الغابرة والحاضرة تجدها
ناطقة حالها بالنقصان هؤلاء مديرو حركات السكك الحديدية
في كافة انحاء المعمورة يبذلون جهد استطاعتهم ولا يألون
جهداً فى تدقيق الحساب خشية ان يتقابل قطاران او يصطدم
وابوران ومع ذلك فكثيراً ما ضاع حسابهم فهلكت نفوس
وضاعت أموال فلا تزال تسمع كل يوم فى انحاء المعمورة
باصطدام وابورين وموت مائة نفس او مائتين فضلا عن
الخسائر الجسيمة والمضار العظيمة ولم تصل دولة من الدول الى
الآن الى ان تضع حساباً يقيها غوائل تلك الصدمات ولن
تصل بعدُ مع اتجاه كافة العقول اليها واتحادهم عليها مع قلة
تلك الآلات فى جميع الجهات بالنسبة الى الاجرام الاثيرية
والكواكب العلوية التى وضعها الحكيم العليم في هذا الفضاء
الواسع دهوراً واحقاباً لا يعلم اولها ولا يدرى آخرها فياللعجب
لتلك القوانين التى حفظتها مع كثرتها وعدم حصرها من الصدمات

والملاقاة مع ان هذه العوالم كلها مرتبطة ارتباط الجسد الواحد
بحيث لو اختل بعض اجزائها لتسارع الخلل الى الباقي منها
وعلى ذلك لو اصطدم نجمان فسد النظام كله كما تقف الساعة
باختلال بعض اجزائها وذلك ان فى الكون قوة منتشرة في
سائر اجزائه وهى الجذب العام كما قدمنا بها تتجاذب الاجسام
فالكبير منها يجذب لنفسه الصغير لان القوة المنبثة فى الاول
اعظم من القوة المنتشرة في الثانى على نسبة الجسمين وعلى ذلك
فكل كوكب في هذا الفضاء الشاسع يجذب الكواكب
الباقية بنسب مختلفة وكلها جاذبة له فبقاؤه فى حيِّزه ودائرته
التي اختطها له مبدعها نتيجة جذب جميع الكواكب له فلو
فرض زوال اى كوكب عن دائرته التى يرسمها فى دورانه
اختلت الموازنة بين جميع الكواكب وحصل تغير عام فى
نظام هذا الكون قال تعالى ﴿ وما أمرُ السَّاعَةِ الاَّ كلمحِ
البصَرِ أوْ هوَ أقْرَبُ انَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير ﴾

توحيد وآداب واخلاق

ها أنت ترى ان الشمس والقمر والنجوم تجرى بحساب به انتظمت

أوقات معاشنا وزراعاتنا وصومنا وافطارنا قال الله تعالى ﴿ هو
الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا
عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصّل
الايات لقوم يعلمون إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله
فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون ﴾ وقال تعالى
﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار
مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب
وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ ولما كانت هذه العجائب يراد
بها التفكر فى عظمة الخالق وقدرته وعامه التامين وحسابه
البديع كما ان عليها نظام الدنيا ايضاً أردف الآية الاولى بذم
من اقتصر على الوجهة الدنيا ووقف فكره على استعمال هذه
النظامات الفلكية فى الامور المعاشية فقال ﴿ ان الذين لا يرجون
لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا
غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ واعلم انه
لا يستشعر بلذة العلم بذلك الحساب وعدد السنين الا من

اتقى وآمن بالبراهين العقلية فصفت نفسه من الحقد والحسد
وغيرها من الخبائث ثم وجّه فكرته الى تلك المعالي فيدخل
جنة العلوم والمعارف فى الدنيا التى نتيجتها جنة عرضها
السموات والارض فلذلك اردفه بقوله ﴿ انّ الذين آمنوا
وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار
في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام
وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ وتأمل كيف ابتدؤا
بالتسبيح وختموا بالتحميد في دعائهم وكم تحت هذه الآيات من
عجائب لا حصر لها وكل من عرف شيئاً من الفلك او غيره
من العلوم ولم يذق تلك اللذة فهو من الذين لا يرجون لقاء
الله واطمأنوا بالدنيا أما من لاحظ تلك العظمة فهو من الذين
آمنوا وعملوا الصالحات وهداهم ربهم بايمانهم لفهمهم المقصود
من هذا العالم فافهم نكت القرآن وتأمل فيها بامعان فكفى ما
ضيعنا من ديننا فيما سلف . فان قلت كيف السبيل الى تلك
اللذة وما هى الا القوانين الفلكية أقول ان لكل عمل فاعلاً
وقابلاً وصورةً وعلةً غائيّة وهذه الحركات الفلكية قد ينظر

اليها باعتبار العلة الغائية وقد يكون باعتبار الفاعل ومقدار
عظمته التي ظهرت فى ملامحها مثلاً مدة دورة القمر التى يعبر
عنها بالشهر القمرى (٢٩) يوماً و (١٢) ساعة و (٤٤) دقيقة
وكل (١٢) شهراً تسمى سنة قمرية وعند حساب الاشهر
يعتبرون كل شهر (٢٩) يوماً و (١٢) ساعة ثم يعتبرون شهراً
كاملاً وآخر ناقصاً فالمحرم ٣٠) وصفر (٢٩) وهكذا فتكون
السنة العربية على هذا (٣٥٤) يوماً وتكون ناقصة عن مقدارها
الاصلي (٤٤) فى (١٢) يساوى (٥٢٨) دقيقه وهذا العدد
يصير (١١) يوماً فى كل (٣٠) سنة ولذلك اتفق علماء العرب
لاكمال السنة على ان يجعلوا فى كل (٣٠) سنة من ابتداء السنة
الهجرية (١١) سنة مركبة كل منها من (٣٥٥) يوماً وسموها
بالسنين الكبيسة وكانوا يضيفون اليوم الزائد الى شهر ذى الحجة
والتسع عشرة سنة الاخرى تبقى كل منها (٣٥٤) يوماً وتسمى
بسيطة والسنين الكبيسة فى كل (٣٠) سنة هى ٢ و٥ و٧ و١٠
و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩ ولمعرفة السنين الكبيسة
والبسيطة نقسم عدد سنى التاريخ على (٣٠) فان بقى باق

يساوى احد الاعداد المذكورة تكون السنة المطلوبة كبيسة
والا فهى بسيطة مثلاً سنة ١٣١٧ التى هي سنة تأليف هذا
الكتاب هي بسيطة لانه بقسمة ١٣١٧ على (٣٠) يبقى {٢٧}
فهى اذن بسيطة والاسهل ان يجرى باقي القسمة على حروف
البيت الآتي بالتوالى فان وافق حرفاً مهملاً فبسيطة والا
فكبيسة وهو هذا البيت

ان رمت مجداً فلا ترقد دجىً ابداً * خوف الفوات لما ترجو من الشرف

مثال آخر تأمّل حساب كسوف الشمس وخسوف القمر
وكيف لا يختلف حسابهما من يوم خلق الله السموات
والارض الى انقراض العالم وقد سمى الاقدمون مدة قدرها
١٨ سنة و١١ يوماً باسم مخصوص (ساروس) لانها تحتوى
على {٧٠} خسوفاً وكسوفاً منها «٢٩» خسوفاً و«٤١» كسوفاً فتأمل
معى بعقلك كيف دارت أدوار الكبس والبسط والخسوف
والكسوف بحيث ان السنين الكبيسة والبسيطة والخسوفات
والكسوفات في الدور الثاني على حسب الدور الاول فى كل
من المثالين وفى التواريخ بعينها وهكذا كل دور مما لا نهاية له

في الماضي والمستقبل وكيف تكون الثلاثون في المثال الاول
و١٨ سنة و١١ يوم في المثال الثاني لا تزيد ولا تنقص ﴿صُنْعَ
اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولولا هذا ما امكن علماء الفلك
أن يعرفوا حوادث الخسوف والكسوف المستقبلة ولا غيرها
كيف وقد وضعوا نتائج دهرية يعمل بها الى اخر الزمان
ولعمرك كل هذا من الميزان الذي قامت به السموات والارض
ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ ونفهم بعض معنى
القسط الذي هو العدل والنظام ووضع كل شيء في موضعه
اللائق به ونفهم قوله ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وقوله ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ فياجهل قوم
يقرأون النتيجة التي في أيديهم ولا يجول فكرهم فيما فصله الله
تفصيلاً في جداولها كما قال في الآية المتقدمة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ
فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ كيف وهي تشتمل على اوقات الحر بقرب
سمت الشمس والبرد ببعده والخريف والربيع بتوسطه وكل هذا
بحساب بديع لو اجتمع الاولون والآخرون على ان يضعوا

ساعة تمشي بحساب منتظم مثل الشمس لعجزوا وكيف كانت
ايام كل سنة يحذو كل يوم منها حذو نظيره من التي قبلها
﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾
والامر سهل ان قلنا دارت الارض او الشمس وقد أوضحنا
الكلام على الخلاف بين الاوائل والاواخر في ذلك واستنتجنا
خلاصته بالبراهين العقلية مع مقارنتها بالآيات القرآنية مما لم
نسبق به في كتابنا جواهر العلوم فراجعه ان شئت
ثم تأمل في الليل والنهار الناتجين من دوران الارض حول
نفسها وانظر هذا التعديل الحق الذي قام بالقسط فانك لو
جمعت ساعات الليل وساعات النهار في مجموع السنة لوجدتها
متساوية مع ما ترى من الاختلاف العظيم بينهما ومن العجيب
ان هذا لا يختلف في أي نقطة من نقط الارض حتى ان جهة
القطبين تكون السنة فيها يوماً وليلة متساويين كما تساويا في
خط الاستواء وان العقل هنا يحار عند ما ينظر في الظلام
والنور وكيف كانا مناسبين لنا وذلك انا خلقنا من جسم وروح
كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ

طينٍ فاذا سويتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾
فهنا جسم من الطين وروح نفخها الله فالاول يناسب طبيعة الارض
ويميل اليها ويحب الراحة والثاني يحب الحركة والسعي والانتشار
فى الارض والبحث عما فى العالم من موارد معقولاته

فتأمل كيف جعل للشمس سلطاناً نصف السنة مشاكلة لا رواحنا
لتسعى الى ما فيه الكمال وكيف جعل للظلام سلطاناً النصف
الآخر لمناسبته للطين الذى خلق الجسم منه ليأخذ حظه بالراحة
والنوم ليظهر عدله ويفهمنا معنى قوله ﴿ قائما بالقسط ﴾ فهذا
من القيام بالقسط ولعلك تقول اذاً كان ينبغي للانسان ان
ينام الليل كله مع ان هذا مذموم قلنا انظر الى الليل تجد
القمر فى مدة الشهر يكون ظهوره نصف جميع لياليه واختفاؤه
النصف الآخر بحيث لو جمعت ساعات ليالى الشهر وقسمت
نصفين لكان المستضيء بالقمر نحو نصفها والمظلم نحو نصفها
فكأن هذا اشارة الى طلب الحركة من أصحاب الجد والاجتهاد
فيما يقرب من نصف الايل ولذلك كان قيام النبي صلى الله عليه
وسلم بالايل حول النصف بالزيادة او النقص او المساواة وقد

أمر المسافرين بالادلاج وهو السير ليلا وما ذكرت هذا من
باب المبرهن عليه وانما هي خواطر وسوانح ولنرجع الى ذكر
الليل والنهار فنقول قد قدر الله الليل والنهار بنظام معلوم كما
تقدم رحمة منه بعباده وميزاناً قائما بين الجسم والروح وبينه
باوضح بيان حيث قال تعالى ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ جعلَ اللهُ عليكمُ
اللَّيلَ سرمداً الى يوم القيامة مَنْ اِلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياءٍ أفلا
تسمعون قل أرأيتم انْ جعل اللهُ عليكمُ النهارَ سرمداً الى يوم
القيامة مَنْ اِلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون
ومن رحمته جعل لكمُ الليلَ والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من
فضله ولعلكم تشكرون ﴾ فالسكون راجع لليل والابتغاء من
الفضل راجع للنهار ففيه نشر على ترتيب اللف

﴿ اقتطاف وردات واجتناء ثمرات من رياض الفلك والميقات ﴾

ننظر نظرة أخرى فى الايل والنهار فانهما بالتأمل ناشئان من حركة
الارض حول نفسها واليوم الذي هو مجموعهما له نسبتان
نسبة الى مدة سير القمر حول الارض المكون للشهور
والسنين العربية وقد تقدم باجلى بيان ونسبة أخرى الى مدة

سير الارض حول الشمس المكون للربيع والصيف والخريف
والشتاء لارتفاع الحرارة بالمسامتة وانخفاضها ببعدها وبما ينشأ
عن ذلك من النباتات الصيفية والشتوية والربيعية والخريفية
والمصالح التي لا تتناهى فتقطع في سيرها دائرة عظيمة حول
الشمس منتقلة في «١٢» برجا في مدة «٣٦٥» يوماً و«٥» ساعات
و«٤٨» دقيقة و«٥٠» ثانية وهذه هي المسماة بالسنه الشمسية
اذ هي على حسب سير الشمس فى الظاهر اذ المبرهن عليه فى
الهيئة ان الحساب لا يختلف دارت الارض او الشمس

ولاجل سهولة الحساب جعلوا كل سنة من ثلاث سنين
متوالية «٣٦٥» يوماً ورابعتها «٣٦٦» والاوليات يسمين بسيطات
والاخيرة تسمى كبيسة مثلا سنة ١٨٩٩ ميلادية سنة تأليف
هذا الكتاب بالقسمة على «٤» يكون الخارج «٣» فهى بسيطة
الاان آخر المئآت له حكم آخر وهو ان المائة التى تقبل القسمة
على «٤٠٠» تكون السنة المتممة لها كبيسة وغيرها بسيطة فسنة
١٦٠٠ كبيسه وسنة ١٧٠٠ وسنة ١٨٠٠ وسنة ١٩٠٠ التى
(فيها مباشرة طبع هذا الكتاب) فهى بسيطة ويضاف لكل

«٤٠٠» سنة يوم فتكون كبيسة فانظر كيف لم يتغير حساب الليل
والنهار من يوم ان خلق الله السموات والارض بدوران
الارض وجاءت أيام كل سنة تحذو حذو ما قبلها ثم كيف لم
تختل مواعيد سير الارض حول الشمس حتى أمكن العلماء
أن يضعوا قوانين سارية من ابتداء خلق الدنيا الى الآن بل الى
يوم القيامة ولعمرك ان هذا لمن الموازين التى قامت بها السموات
والارض ومن العجيب ان مدة دورة الارض حول الشمس
التى يعبر عنها بالسنة الشمسية لم تأت أياماً كاملة فربما يقول
الناظر نظراً سطحياً ان هذا قد جاء بالصدفة بحيث دارت
الارض حول نفسها ودارت حول الشمس ولم يحصل التوافق
بينهما بالصحيح بل بالكسر ولكن البصير الفطن يعلم ان
تلك الكسور جعلها الله لتضطر العباد الى البحث والتنقيب
حتى يعرفوا فلو سهل الحساب ولم يختلف فمن أين تشحذ
الاذهان ومن أين تنور البصائر *(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ
ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)*
فلو أراد عدد السنين وحدها لجعلها في غاية السهولة بالاعداد

الصحيحة ولكنه أراد مع ذلك ان تعرف الحساب والحساب
باب واسع والكسور التى في علم الفلك مما تلزمنا معرفة
تلك الابواب ولذلك لا يَعرف علم الفلك حق المعرفة الا من
درس الحساب والهندسة والجبر حق دراستها اذ هو ثمرتها
كلها كما ان معرفة الخالق سبحانه وتعالى ثمرة الجميع فالحساب
في الآية ذكر ليكون مقدمة للفلك ومعرفته لذلك تقتضى
حوز النهاية فيه وله ثمرات أخرى كثيرة فتحفظ به حقوق
الدول والموازين والمعاملات بين الناس بفروعه الكثيرة
ومثل متعلم الحساب فى ذلك كمثل من يطلب العلوم ليعرف
بها الخالق فانه لا يزال يجدُّ فيها فرحاً بها حتى يصل الى مايمكنه
الوصول اليه وهو مع ذلك قد حصل علوماً جمّة تنفعه وتنفع
غيره فى العقليات والماديات بخلاف من قصر نظره على علم
واحد يرتزق به فان نفسه لا تستشرف الى المعالى ولا ينال لذة
الروح التامة مادام حيًا فهو كصانع من المحترفين والمقصود
انه كلما كانت همة الانسان في طلب العلم اعلى زاد نفعه وكلما
ضعفت وجهته وكان مرماه قريباً قلت الفوائد

اذا ما كنت فى أمر مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
وأيامَ الحياة فلا تضعها * فان ضياعها حر السموم

وما أحسن ما أعقبه بقوله ﴿ ما خَلَقَ اللهُ ذلك إلاَّ بالحق
يُفَصِّلُ الآيات لقومٍ يَعلَمُون ﴾ وما أحسن قوله بعد ذلك
(إنَّ فى اختلاف الليل والنهار. الخ) فكل هذه اشارات
عجيبة وطُرَف بديعة لا تعرف الا بمزاولة العلوم مع البصيرة
التامة والذوق اللطيف ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول ،
ثم انظر كيف حفظت النسبة بين السنين القمرية والشمسية
التي يُقرِّبها قوله تعالى *(ولَبِثُوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين)* شمسية
(وازدَادُوا تسعاً) اذا اعتبرت قمرية على وجه التقريب وعلى
ذلك فكل مائة سنة لها ثلاث سنين وهذا كله من الموازين
الالهية *(لتعلَموا عددَ السنين والحسابَ ما خلقَ اللهُ ذلك
الاَّ بالحقّ)*

— جوهرة —

لمناسبة ذكر السنين والحساب اذكر انى كنت يوماً في درس أستاذي
الشيخ حسن الطويل (المتوفى سنة ١٣١٧) رحمه الله تعالى بمدرسة دار العلوم
فسألته قائلاً رأيت في بعض الكتب ان رجلا يهودياً جاء لسيدنا على

كرم الله وجهه وقال اخبرني عن عدد نصفه وثلثه وربعه وخمسه وسدسه وهكذا الى عشره تكون اعداداً صحيحة فقال له سيدنا علي اذا أجبتك فهل تسلم قال نعم فقال اضرب أسبوعك فى شهرك ثم اضرب الحاصل فى عدد شهور سنتك يحصل المطلوب فاسلم الرجل اي اضرب ٧ فى ٣٠ في ١٢ يكون المجموع ٢٥٢٠ فكسوره التسعة كلها اعداد صحيحة ثم قلت كيف أجاب سيدنا على بهذا الجواب وما المناسبة بين السنة والشهر والاسبوع وبين هذا السؤال فاجاب الشيخ بقوله لعله رضى الله عنه اخذها من الاربع عينات فقلت وما الاربع عينات فقال أربعة وسبعة وتسعة وعشرة فكل واحدة فيها عين وبضربها يحصل المطلوب فعجبت من كلام الشيخ رحمة الله عليه وسرعة بديهته ومعلوم ان سيدنا علياً اهتدى الى هذا بصفاء القلب واشراق نور الكمال عليه

﴿جوهرة ثانية﴾

رأيت فيما تقدم ان للفلك ادواراً منتظمة فى الخسوف والكسوف والليل والنهار والسنين الكبيسة والبسيطة والحر والبرد وهكذا القمر فى زياداته ونقصه له ادوار فبينما هو يكون مختفياً فى المحاق المسمى بالاقتران والاجتماع ايضاً وذلك نحو يومين او ثلاثة نراه زاد قليلا قليلا حتى استضاءت نصف دائرته فصار فى التربيع الاول ثم أخذ فى الزيادة حتى صار بدراً كاملاً فى نصف الشهر ثم أخذ فى النقص حتى صار فى التربيع الاخير فى ثلاثة أرباع الشهر وانظر كيف كانت حركته

واحدة ونهجه لا يتغير ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وكم في اختلاف أشكاله من منافع للناس في الحيوان والنبات والبحار كالمد والجزر والاول ارتفاع البحر بمحاذاة القمر والثانى انخفاضه وشرح ذلك يطول ومحله علم الفلك ومن العجيب ان العقل ادرك في الحساب كسراً دائراً لا يتناهى مثلاً ٢ ÷ ٣ خارج قسمته ٠٫٦٦٦٦ ∞ و١٣ ÷ ٧ = ١٫٨٥٧١٤٢٨٥٧١٤٢ ∞ فكل منهما يكرر مرات لا نهاية لها أبداً وادواراً لا تتناهى وهى منتظمة انتظاماً عجيباً وهكذا جذر العدد الاصم كثلاثة وخمسة فانه لا يتناهى فقارن هذا الذى رأيته في الكسر الدائر المنتظمة أدواره بما رأيت فى حساب الفلك من انتظام أدواره وكيف تطابق المحسوس والمعقول بل كيف برزت الحقائق الكامنة فى العقل الى عالم الظهور ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وتأمل في ان الاعداد لا نهاية لها وصور العالم التى يمكن ان

يوجد عليها لا يوقف على حصرها فكيف اختار لها مبدعها
هذا الوضع *(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ما كَانَ لَهُمُ
الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)* فما أقدر من حسب
هذا الحساب كله فى علمه القديم وعلم مالا يتناهى واختار منه
هذا الوضع العجيب الذى هو غاية الابداع والاَّ لجاز اعلى
منه والحكمة لا تقتضى الا الاعلى وهنا وقف جواد القلم
وكم وراء هذا من مكنون علوم كتمها العلماء العارفون فعلوم
الله لا نهاية لها والله لاحد له فيعرف . كل هذا يؤخذ مما
ذكرنا فيما تقدم لمن كان لهُ قلبٌ او ألقى السمعَ وهوَ شهيد)*

—* تنظيم الاوقات *—

ثم لننظر من الوجهة الادبية فنقول اذا كانت هذه العوالم
المسخرات لك ايها العاقل قد رتبت اوقاتها باحسن ترتيب
وابدع نظام فكيف تترك أوقاتك هملا وقد قال علماء
الاخلاق ان الانسان متى ترك اوقاته فى يد الصدفة
يعمل الاعمال بالاتفاق ضاعت اوقاته بلا فائدة دينية او دنيوية
كيف وهو فى حيرة كلما جاء وقت اخذ يتردد فى الفكر ماذا

اصنع ماذا اعمل وكل هذا ضياع فالحياة الحياة
لقد ضاع عمرٌ ساعة فيه تشترى * بملء السما والارض اية ضيعة
قال تعالى *(حتى اذا جاءَ احدَهمُ الموتُ قال ربِّ ارجعونِ
لعلّي اعملُ صالحاً فيما تركتُ كلاَّ إنَّها كلمةٌ هوَ قائلها ومِنْ
ورائهم برزخٌ الى يومِ يُبعثونَ)* وقال تعالى *(وانذرهمْ
يومَ الحسرةِ اذْ قضيَ الأمرُ وهمْ فى غفلةٍ وهمْ لا يؤمنونَ)*
فالبدار البدار الي العمل فاذا طلع النهار فرتب اعمالك على
ساعاته ولا تعمل عملاً فى غير وقته واتبع فكرتك الاولى
واجعل للرياضة وقتاً مخصوصاً بها واقتد بنبينا صلى الله عليه
وسلم فقد كان يقسم وقته اقساماً فقسم للعبادة وقسم للناس
يُعلّمهم ويقول (ليبلّغ الشاهدُ منكم الغائبَ) وقسم لاهله
وقسم لنفسه ثم يخرج فيؤلف الناس ولا ينفرهم ويكرم كريم
كل قوم ويوليّه عليهم وتفصيل هذا في كتاب الشمائل للترمذى
وقد كان صلى الله عليه وسلم مخيراً بين قيام نصف الليل وثلثه
وربعه او كان مخيراً بين قيام النصف والزيادة عليه والنقص
عنه احتمالان ذكرهما الكشاف فى تفسيره وقد كان سيدنا

داود صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم يجزيء زمانه أربعة اجزاء
يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخواص أموره
ويوماً يجمع بني اسرائيل فيعظهم ويبكيهم كما ذكره صاحب
الكشاف واما ترتيب صلاته وصيامه فقد روى البخاري انه
صلى الله عليه وسلم قال (أحب الصلاة الى الله صلاةُ داود عليه
السلام واحب الصيام الى الله صيام داود كان ينام نصف الليل
ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً « اه ») فمن
هذا يعلم ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم قدوتنا
رتبوا اوقاتهم وتخلقوا باخلاق الله في نظام أنفسهم وفي أعمالهم
﴿أولٰئك الذين هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه﴾ بل جميع الحكومات
المتمدنه رتبت أوقات اعمالها بل غير الانسان من الطيور
والدواب شوهد منها ترتيب عجيب فى تنظيم الاوقات ﴿انّ
الانْسانَ لَظلومٌ كَفَّارٌ﴾ ويجب على الاب والام ان يعوّدا
ولدهما من الصغر على ترتيب أعماله زماناً ومكاناً بل يجب على
الام كما ذكره صاحب كتاب كنوز الصحة ان ترضع ولدها
في أوقات معينة فى النهار اربع مرات وفى الليل مرتين لتستفيد

هي النوم بالليل لاعتياده فى الغذاء على أوقات مخصوصة
وليتعود هو في كبره على تنظيم اوقات اكله وان تنظم أيضاً
بقدر الامكان أوقات تغوطه وان تلاعبه بالنهار عند ارادة
النوم ليكون نومه ليلا فيكبر وهو منظم الاوقات من
حيث لا يشعر

فياضيعة أيام من لم ينظم أوقاته وما أجهل الابوين اللذين
يقولان ان لم نربه ربته الايام والليالي فبئست التربية أو
يقولان ابن الحمقاء يعيش أكثر ومن حسن النظام أيضا كما
قاله في الكتاب المذكور ان تعطي المرأة ولدها دقيق الارز
المغلي في الماء أو اللبن بدل رضعة من الرضعات اذا أرادت
الفطام وبعد مدة تعطيه من ذلك بدل رضعة أخرى وهكذا
فيفطم الطفل وهو لم يستضر بألم لا هو ولا الأُم « اه »

اجمال الكلام على النظام العام فى السموات والارض

ذكرنا فيما تقدم نظام العلويات ولنذكر الآن النظام العام فى
السموات والارض على حسب الاستكشافات الحديثة لنفهم
معنى قوله تعالى ﴿ انَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ والارْضَ انْ تَزُولا

وَلَئِنْ زَالَتَا ان امسكهما مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً
غَفُوراً ﴾ وقوله ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ ان تَقَعَ على الارض الَّا بِأِذْنِهِ
إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقوله ﴿ ثم اسْتَوَى الى السَّمَاءِ
وَهِيَ دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا
طَائِعِينَ ﴾ ولعمرك ان امساك الله للسموات والارض لا يسع
شرحه مجلدات وكتابنا كله قطرة من بحر معنى ذلك الإمساك
ولا ذكر نبذة من ذلك عثرتُ عليها في كتاب النفائس
لاولاد المدارس نقلاً عن المقتطف قال بنصه

الجاذبية ميزان السماء والارض

اذا وضعنا قطعتين من الفلين فى كأس ماء رأيناهما تقتربان احداهما
من الاخرى حتى تلتصقا مع عدم وجود محرك لهما في الظاهر فلو
قيل ما سبب اقتراب الفلينتين احداهما الى الاخرى والتصاقهما أخيراً
ولا محرك لهما في الخارج فلا الماء متموّج ولا الهواء متحرّك لقيل
لا بد وان يكون السبب داخلهما وهذا السبب هو الجاذبية وعنه بحثنا
الآن فاذا اخذنا قطعة من قطع الفلين او جسما آخر غيره و قطعناه
ثم قطعنا قطعه قطعاً اصغر ثم قطعنا هذه ايضاً قطعاً اصغر وهكذا حتى

لا يعود فى وسعنا تقطيع ذلك الجسم الى اصغر مما قطعناه قيل لتلك
القطع جواهر مادية او دقائق فالجوهر المادي او الدقيقة هو اصغر
ما يتوصل اليه بالعمل ويفرض عند الفلاسفة انه مؤلف من جواهر
اخرى اصغر منه لا تشعر بها الحواس تسمى الجواهر الفردية ولهذه
الجواهر صفة ملازمة لا تنفك عنها وهى انها تجذب بعضها بعضاً حيثما
وجدت وتطلب ابداً ان تتلاصق بعضها ببعض وهذه الصفة هى
الجاذبية فقطعة الفلين مثلا جسم مؤلف من جواهر فردية جاذبة بعضها
بعضاً ومرتبطة بعضها ببعض بقوة الجذب التى فيها واذا قربت اليها قطعة
اخرى فجواهرهما تتجاذب فتتقارب بعضها من بعض حتى تتلاصق
ولولا الجاذبية لكانت كل مادة العالم جواهر متفرقة متباعدة بعضها
عن بعض ليس فيها جسم من الاجسام فكان لا فرق بين الماء والحجر
والخشب والذهب وسائر الاجسام الا ان يكون فى جواهرها الفردية
ومن البين انه كلما زاد عدد جواهر الجسم زادت جاذبيته فجاذبية
الخشبة المؤلفة من الف جوهر أقل من جاذبية الخشبة المؤلفة من
ألفين واذا وضعنا كلتاهما على وجه الماء فذات الالفين تجذب ذات
الالف اكثر مما تجذب منها واذا وضعنا معهما خشبة مؤلفة من عشرة
آلاف جوهر تجذبهما اليها ولا تجذب منهما الا قليلاً فتقتربان اليها
اكثر مما تقترب اليهما واذا كانت ذات جواهر اكثر فلا تتحرك من
موضعها فى الظاهر واما هما فتنجذبان اليها حتى تلتصقا بها ثم ان الارض

جسم كبير مؤلف من جواهر لا يحصى عددها وكل جسم عليها صغير جداً بالنسبة اليها فجواهرها مرتبطة بعضها ببعض بالجاذبية التي بينها وكذلك جواهر ما عليها من الاجسام

ولما كان من طبيعة جواهر المادة ان تتجاذب حيثما وجدت فجواهر الارض تجذب الاجسام التي عليها وجواهر الاجسام تجذب جواهر الارض وبعبارة أخرى ان الارض تجذب ما عليها من الاجسام وتنجذب منها حتى تصير واياها كالجسم الواحد ولكنها لكبرها وصغر تلك الاجسام يظهر انها تجذب فقط ولا تنجذب كما يظهر ان الخشبة الكبيرة تجذب الخشبتين الصغيرتين ولا تنجذب منهما كما تقدم آنفاً فكيفما دارت الارض بالاجسام التي عليها تبقى تلك الاجسام لاصقة بها ولا تفلت منها لانها مرتبطة بها بالجاذبية كانها مربوطة بحبال فاذا دارت الارض على محورها تبقى الاجسام ثابتة عليها وكذلك اذا دارت حول الشمس واذا رمينا جسماً عنها فلا تكف عن جذبه حتى ترده اليها ولذلك تنزل كل الاجسام الى الارض ولذلك أيضاً يبقى الهواء محيطاً بها والماء مستقراً فى البحار على سطحها اذ هى كلها مرتبطة بها ارتباطاً بالجاذبية

ومن البين ايضاً انه كلما قربت جواهر الاجسام بعضها من بعض يقوى تجاذبها وكلما بعدت بعضها عن بعض يضعف فاذا فرض ان البعد بين جوهرين شعرة كانت قوة الجذب بينهما اقوى مما تكون لو صار البعد بينهما شعرتين وكلما قربت الاجسام بعضها من بعض زاد تجاذبها

ايضاً لان جواهرها تكون قد تقاربت فاذا وضعنا فلينتين فى الماء على بعد قيراط احداهما من الاخرى تجاذبتا وتقاربتا باسرع مما لو وضعناهما على بعد قيراطين احداهما من الاخرى وكذلك اذا ارتفع حجر عن سطح الارض فجذبها له يقل عما كان وهو على سطحها وتعرف جاذبية الارض للاجسام التى عليها بالثقل فاذا قلنا ان جاذبية الارض لهذا الجسم اشد مما لذاك كان المراد ان ثقله أعظم من ثقل ذاك وما يصدق على الجاذبية يصدق ضرورة على الثقل فكلما زادت جواهر الجسم زاد ثقله لان جاذبيته تزيد وكلما بعد الجسم عن سطح الارض قل ثقله فثقل النسر يخف متى علا عن سطح الارض عما يكون وهو على سطحها والرطل ينقص اذا طير به الى اعالي الجو واذا صعد انسان فى بالون وكان ثقله على سطح الارض ثلاثين رطلاً يصير ثقله ستة دراهم فقط اذا علا عنها علو القمر فظهر مما سبق ان من الصغائر (أي من تجاذب قطعتي الفلين) اتصلنا الى الكبائر (أي الى جذب الارض لما عليها من الاجسام) وثبوت الاجسام عليها وثقلها وخفتها ومن هذا ستتصل الى ما هو اكبر واسمى ونعني به ثبوت الارض وعوالم السماء متوازنة هادئة حالة كونها معلقة فى الخلاء على لاشيء.

الارض كرة معلقة فى الفراغ لا شيء فوقها ولا شيء تحتها ولا شيء عن جوانبها كأنها طابة فى الهواء وهكذا الشمس والقمر وسائر الكواكب فانها عوالم اكثرها اكبر من الارض بما لا يقاس وجميعها مركوزة

في جوانب الكون على الخلاء فربّ قائل يقول وكيف يتم لها ذلك
ولا عماد تستند اليها ولا دعائم ترتكز عليها نقول ان الباري يحفظها
كذلك بالجاذبية فالارض تجذب الشمس وبقية الكواكب والشمس
تجذب الارض وبقية الكواكب وهذه الكواكب تجذب الشمس
والارض وتجذب بعضها بعضاً كأنها مرتبطة بحبال وقد وضعها البارى
تعالى على ابعاد مناسبة بحيث يكون تجاذبها واسطة لتوازنها فكأن
الجاذبية ميزان ذو كفات لا كفتين وكأن كل عالم عيار فى كفة موازن
للعيار الآخر فلو قرب بعض هذه العوالم من البعض الآخر او لو تلاشى
من الوجود لبطلت موازنته وتجاذبت الكواكب فتلاطمت وتحطمت
وتخرب الكون تخرباً ولقد امسك عقل الانسان هذا الميزان وعرف
احكامه فصار ابن هذه الاعصار يزن الارض وعوالم السماء بالارطال
كما يزن البائع أمتعته فسبحان من رتب هذه النواميس وعلم الانسان
مالم يعلم . انتهى بحروفه .

توحيد وآداب وأخلاق

ها أنت شاهدت هذه العوالم هادئة في اماكنها قد امسكها
الله كما قال ﴿إنّ الله يُمسكُ السموات والأرضَ انْ تزُولا﴾
وحصل التوازن العام بين جميع العوالم فهذا قطرة من بحر

قوله تعالى ﴿ووَضعَ الميزان﴾ ونظير هذا ما بين الدول من
التوازن فترى احداهن تقف مع نظيرتها على حد الوسط
وتخضع الصغرى وتميل للكبرى وتتودد اليها فهكذا الارض
تخضع للشمس وتسير حولها ولكنها لا تخضع للسيارات
كزحل والمشترى والمريخ وتجذب القمر الذي هو أصغر منها
حتى يسير حولها ﴿وترَى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهيَ تمرُّ
مرَّ السَّحابِ صُنعَ اللهِ الّذي أتقنَ كلَّ شيءٍ﴾ فالعوالم العليا
والسفلى قد تشابهت بنظام واحد ﴿ما ترَى في خلقِ الرحمنِ
منْ تفاوُتٍ﴾ بل انفذ بصر بصيرتك باشعة العلوم فى اقاصي
الكون وادانيه تجد نظاماً مهما اختلف وتنوّعت صُوَرُه فهو
متقارب متشابه ﴿فارجعِ البصرَ هلْ ترَى منْ فُطورٍ ثمّ
ارجعِ البصرَ كرّتينِ ينقلبْ اليكَ البصرُ خاسئاً وهوَ حسيرٌ﴾
فقس الآن احوال النفوس على هذه العوالم تجد ان فى
نفوسنا حباً طبيعياً وميلا غريزياً الى ابناء جنسنا وعواطف
لا يمكننا التخلي عنها فهى كالجاذبية بين اجزاء العالم التي رأيتها

فالحب بين نوع الانسان هو الاصل الثابت كما قال تعالى
﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً انَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
اِنَّ اكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ اتْقَاكُمْ ﴾ وقال ﴿ وَتَعَاوَنُوا على البِرِّ
وَالتَقْوَى ﴾ ويا للعجب كيف أوصت الشريعة على حب الوالدين
والاقربين فأمرت بصلة الأرحام وذلك كثير فى القرآن
والاحاديث التى بلغت النهاية فى الكثرة فمن الآيات قوله
تعالى ﴿ واتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءلُونَ به والْأَرْحَامَ اِنَّ اللهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقيباً ﴾ وقوله ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ انْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفسِدُوا
فى الأَرْضِ وَتُقَطِّعوا أرْحَامَكُمْ اوْلئكَ الَّذِين لَعَنَهُمُ اللهُ
فأصَمَّهُمْ وَأعْمَى أبْصارَهُمْ أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القرْآنَ أمْ عَلَى قلوبٍ
أقْفَالها ﴾ وقوله ﴿ واعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكوا بِهِ شيْئاً وَبالوالدين
اِحْسَاناً وَبذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى والمَسَاكِين وَالْجَارِ ذِى القُرْبَى
وَالْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أيْمَانُكم انَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ ومن الاحاديث

قوله صلى الله عليه وسلم كما في الجامع الصغير (كلُّ الذُّنوبِ
يؤخِّرُ اللهُ تعالَى مَا شَاءَ مِنْهَا الى يَوْمِ القِيامَةِ الاَّ عقوق الوالدين)
وتأمل أيضاً في قوله عليه الصلاة والسلام كما فى الاحياء « بَرَّ
أمَّكَ وأباكَ ثمَّ أختَكَ وأخاكَ ثمَّ أدْنَاكَ فأدْنَاكَ »
ويا عجباً كيف طابقت الشرائع المنزلة على الانبياء نظام هذا
الكون وامرنا بصلة الاقرب فالاقرب والتعارف مع ابناء
الجنس عموماً على نحو ما تفعله العناصر بالجاذبية حيث تتقارب
وتنجذب الى مايليها مما هو من جنسها فعرفنا ان الحب من الميزان
الذي قامت به السموات والارض ولكننا من جهة أخرى نجد
ان كلاً يحب الاختصاص بمنافع الحياة فتولدت البغضاء فهي
اذاً عارضة لا اصلية ولذلك ورد فى الشريعة ذم الحقد والحسد
والبغضاء والشحناء بين الناس اذ ليست اصلية فى فطر أرواحنا
التى هى امر آلهى كما قال تعالى ﴿ قلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي ﴾
والحب فطرة الله التي فطر الناس عليها وهو كماء مستمد من
نهر الحياة الطيبة به تحيي العقول والارواح حياة طيبة بالعمل
الصالح والقول الثابت فى الحياة الدنيا والآخرة ﴿ وَانَّ الدَّارَ

الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لو كانوا يَعْلَمُونَ ﴾ وفيها يترقى الانسان
بلا نهاية وينزع ما في الصدور من الغل ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم
مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ وانظر كيف اكتفى
بنزع الغل من الصدور في كونهم اخوانا على سرر متقابلين
ولم ينص على احداث حب لانه اصلي في الفطرة فما البغضاء
الا كالزبد العارض على وجه الماء ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فلا بد من زواله الا ترى
ان الاجسام مهما تباعدت قسرًا عن احيازها فلا بد لها من
رجوع اليها ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴾ فما اجمل الحياة التي تؤسس على الحب
وترك ما لا فائدة فيه من الاقوال والافعال فضلاً عن
الاكدار في هذه الدار حتى تعشق النفس مكارم الاخلاق
وجميل الافعال .

﴿ اقسام الحب ﴾

اعلم ان الحب أربعة اقسام الاول مذموم وهو الحب الشهواني
السافل الذي اشترك فيه الحيوان والانسان فمن تولع به دل
على نقص فطرته وهو مستفيض في الطبقة السفلى من الناس
﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ . الثاني حب الناس بعضهم بعضا
للكمال والآداب وهو مستفيض فيما بين ذوي النفوس
العالية والاخلاق الكريمة والادباء والظرفاء ومتى اعترته
الشهوة صار من الطبقة السفلى كما تنزل الفرس عن مرتبة
الجياد الى درجة الحمير بضعفها عن الكر والفر . الثالث ان
تحب جميع العوالم للبحث عن حقائقها حتى كأنك عاشق لكل
ما تراه لتبحث عن حقيقته وهذا عشق العلماء والعارفين . الرابع
محبة مدبر هذا الكون . واعلم ان كل درجة من هذه الدرجات
اعلى مما قبلها ومقدمة لما بعدها الا الاولى فانها قد تعد فسقاً
وفجوراً مردية الى جهنم وبئس المصير . اللهم انا نسألك اخلاقاً
عالية ونفوسا صافية حتى نصل اليك فالحب لا يمكن الا مع
تهذيب الاخلاق وكلما تهذبت النفس وصفت سعى الانسان

في نفع أمته لحبه لهم ولذلك ترى اهل الكمال يحرصون على
منافع أممهم حباً وشفقة مع بحثهم عن الحقائق الكونيـة ثم
يغلب على نفوسهم حب ربهم قال تعالى حكاية عن يوسف
عليه السلام ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ فالملك اشارة الى
نفع ابناء الجنس وتعليم التأويل اشارة الى التمكن فى العلم وما
بعده اشارة الى ولوع النفس بالرب سبحانهُ وتعالى واما
المرتبة السفلى فهى منعدمة عنده عليه السلام بالعفة التي مدح
بها فى أول السورة فافهم النكت القرآنية العجيبة . ولما كانت
البغضاء منافية لمقصود الشرائع الآلهية ورد قوله تعالى ﴿ وَأَنْ
تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام (لَا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى
يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه) . ولكن مع هذا كله يجب

على العاقل الاحتراس من الاعداء واهل الشر والخداع وان
يكون على حد وسط بلا افراط ولا تفريط فلا يصادق احداً
الا بعد تجربته واذا أحب او أبغض فليعتدل كما قيل احبب
حبيبك هوناً ماً عسى ان يكون بغيضك يوماً ماً . وابغض
بغيضك هوناً ماً عسى ان يكون حبيبك يوماً ماً . والمقصود
الاعتدال على حال التوازن فى جميع الاطوار كما هو حال
الكواكب المذكورة فكأن البغضاء التي أشار اليها الله تعالى
بقوله ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ سوطٌ
ادّب الله به عباده فيقفون موقف الاعتدال ككواكب السماء

الا فاستقم فى كل امرك واقتصد * فذلك نهج للصراط قويم
ولا تك فيه مفرطا او مفرّطا * كلا طرفي كل الامور ذميم

فبقوة التنافر والتجاذب تم نظام الحياة ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ
خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ
نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وهنا نكت يفهمها اولوا الالباب ولنشر الى طرف
منها فنقول . اعلم انه لو كانت الحياة الدنيا ليس فيها الا اسباب
الوفاق التام لا منازع ولا مشاحن ولا مقاطع ولا مدابر

لكانت دار سعادة اذ الحب هو المطلوب وهو لذة الروح
التامة وحينئذ لا يحب الانسان الانتقال منها الى دار الآخرة
فمن رحمته ان ادخل التنافر مع المحبة والمنع مع الاعطاء والفقر
مع الغنى والذل مع العزّ لئلا يركن العاقل الى دنياه فلذلك
أعقبه بقوله ﴿ ففرّوا إلى الله ﴾ واخرجوا من هذا التنازع
فيالها من سياسة آلهية كاد يحوم حولها الاسكندر في اشغاله
ملوك الطوائف بعضهم ببعض ليفروا اليه وهم لبعضهم
مبغضون فمن لم يزهد فى الدنيا بعقله فالحوادث تبغضه فيها رحمة
من الله بخلقه والمقصود ان النعيم فى الدنيا واللذة ليسا
مقصودين ﴿ ثُم لتُسْأَلنَّ يومئذٍ عن النعيم ﴾ وقال عليه
الصلاة والسلام « انَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعِى أَحْبِبْ مَا
أَحْبَبْتَ فَإنَّكَ مُفارِقُهُ وَعِشْ ماشِئْتَ فَإنَّكَ مَيِّتٌ وَاعْمَلْ ماشِئْتَ
فَإنَّكَ مجزِيٌّ بِهِ » رواه فى الاحياء فالدنيا كلها لا ترى فيها
الا جذباً وتنافراً تشهد بذلك الكهرباء يعرفها من درس
الطبيعة وهكذا الموت والحياة والحزن والفرح والخير والشر
والظلمة والنور والعلم والجهل والبذل والمنع وكل هذه

متناقضات والعقل والشرع حاكمان بين تنافر الاخلاق فالفرار
الى الله بالعلم واستعمال العقل وفهم الشرع حتى يحكم العقل
ويحكم الله وهو خير الحاكمين ولهذه الآية وجه آخر عجيب
فراجعه « فى كتابنا جواهر العلوم »

(الكلام على تخيلات لاهل العصر).

(فى مبدأ خلق هذا النظام ونهايته ونحو ذلك)

لمناسبة الكلام على نظام العالم اذكر ما يتخيله اهل العصر فى منشئه
ونهايته وأبين ان من يأخذ ذلك بفكره فقد حاد عن سواء السبيل
فى العقليات ودل ذلك على نقص علمه ومن العجيب ان علماء كل فن
يتخيلون الامور التى لا تدخل تحت طاقتهم ولا يبلغها علمهم بما يعهدون
فى علومهم فمن ذلك ان علماء الفلك في كل عصر يصورون قيام الساعة
بحسب ما يغلب على اذهانهم كقول القائل ان قيام الساعة عبارة عن
اصطدام نجم مع الارض فتزلزل زلزلة عظيمة وتخرج اثقالها ويقول
الانسان مالها ويقع كل ما عليها على تلك النجمة وهى العالم الاخروى
الذى يكون فيه الحساب والعقاب والجنة والنار وهى تكون أوسع من
أرضنا هذه طبعاً . وكقول المتقدمين ان دائرة منطقة فلك البروج
لا تزال تتقارب من دائرة المعدل وان الزاوية التى هى ٢٣ درجة و٢٧
دقيقة تقريباً الآن لا تزال تأخذ فى الصغر شيئاً فشيئاً حتى تنطبق
الدائرتان ويموت الثقلان ويحشر الانس والجان لان ذلك يعدم الفصول

والانتقالات ويفسد النظامات . وكقول علماء الطبيعة ان حرارة الشمس
آخذة في النقص شيئاً فشيئاً فمتى بردت خربت الارض وقامت الساعة
وغير ذلك وهذا كله خبط عشواء ليس عليه دليل ومن تأمل ما أومأنا
اليه عرف ان الكون جميعه كالجسد او كالساعة متى اختل ركن من
اركانها المهمة اسرع الخلل الى جميعها ومن أين أتى لنا التعيين فكما جاز
عقلا ان يكون بما ذكروه جاز بغيره اذ العقل يصوّر ذلك صوراً
لا نهاية لها فمثلهم في ذلك كمثل انسان في جبل رأى آخر مات بحجر
وقع عليه فتخيل ان الموت منحصر في الضرب بالحجر لجمود عقله وقصر
فكره مع ان موت الانسان لا تحصر أسبابه في الضرب بالحجر فكما
يجوز ان يموت به يجوز ان تقطع رقبته او يبقر بطنه او تنقطع عنه
مادة من مواد الحياة التي بها بقاؤه فتعيين السبب بموت الحجر ناشىء
من قصور العلم ليس الا . فهذه أمور ممكنة في نفسها وتعيينها لا دليل عليه .

كيف ونحن لم نعلم تفاصيل ما لدينا من العوالم فكيف
نصل الى الحكم على مالم نعلم *(ولاَ تقفُ ما ليس لكَ به علم
انّ السَّمْعَ والبَصر والفؤاد كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسؤلاً)* ولا
ريب ان السمع والبصر والفؤاد هي موارد العلم وشكرها انما
يكون باستعمالها في الحقائق الممكن فهمها . * والله أخرجكم
من بطون أمهاتكم لاَ تعلمون شيئاً وجعل لكم السَّمْع

والأَبْصارَ والأَفْئدة لعلكُمْ تشكرون)* فانظر رعاك الله
طلب الشكر هنا والنهي عن تضييعها هناك في مالا يعني .
ومن العجيب ان هذه الثلاثة هي موارد تكليم الله للبشر
ايضاً وهو غاية ما يصل اليه النوع الانساني ونهاية شكره عليها
قال تعالى * وَمَا كانَ لبَشَرٍ أنْ يكلّمَهُ اللهُ إلاَّ وحياً أَوْ مِن وَرَاء
حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فيُوحِيَ بإِذْنِهِ مايَشَاءُ اِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ *
فالوحي اشارة الى الهام الفؤاد ومن وراء حجاب اشارة الى
سماع الصوت بدون رؤية وارسال الرسول اشارة الى تمثل
الملك بشراً يرى بالبصر كما يؤخذ من حديث البخاري . حيث
سئل صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي الخ .

فالنهي في الآية الاولى لمن ظلموا انفسهم والمغرورين ورجاء
الشكر في الآية الثانية للمقتصدين من العلماء ونحوهم وتفصيل
التكليم في الآية الثالثة للسابقين بالخيرات باذن الله من الانبياء
والاولياء قال تعالى *(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
ومِنهُمْ سَابِقٌ بالخيرَاتِ باذن الله ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ)*

جوهرة فريدة

ما اجمل الحكمة والذ العلم كم من قاريء يقرأ القرآن ولا يعقل ما فيه
من الحكم ولا يذوق حلاوة لطائف معانيه تأمل فى مدارك الانسان
التى لا يصل العلم اليه الا بواسطتها وهى ست العقل والحواس الخمس
تجد بينها تفاضلا وهى درجات بعضها فوق بعض فما كان منها ابعد مرمى
بحيث يدرك ما بعد عنا فهو اشرف وما كان منها قاصراً على ادراك
القريب او الملاصق فهو ادنى مرتبة واقل شرفا فالقسم الاول هو العقل
والبصر والسمع والثاني هو الشم واللمس والذوق وقد ذكرناها الآن
مرتبة باعتبار درجاتها من الاعلى الى الادنى فكانت نعم الله على الانسان
فى القسم الاول اعظم ومطالبته بالشكر عليها اكبر ولذلك خصت بالذكر
فى تلك الآيات المتقدمة فافهم نكت القرآن واشاراته ولنرجع الى ما كنا
بصدده فنقول

وكم من نواميس فى طى الخفاء عن البشر لم يطلعوا عليها
وسيأتى لك هذا ان شاء الله عند ذكر قوى الانسان وعلومه
ان قوة البشر لا تبلغ الا قدراً محدوداً من العلوم كما سترى
البرهان عليه باجلى بيان وان قوة العقل تقف عند حدها كما
تقف قوة البصر عند حدٍ معلوم وكما لا تعرف العين الاصوات
ولا الأذن الالوان كذلك العقل لا يعرف ما ليس تحت طاقته

وما لا يلزم للعالم الانساني فى معاده او معاشه والا لتشوشت
عليه حياته واختلت أحواله وسأ مصيره قال تعالى ﴿ ولاَ
يُحيطُونَ بشَيءٍ منْ عِلمهِ الاَّ بمَا شَاءَ وَسعَ كُرْسيُّهُ السَّمَوات
والأَرْضَ ﴾ وتصوير الحشر بما ذكر من النجمة وانها هى
ارض الحشر والجنة والنار تخيل فاسد نشأ من فهم عامى .
كيف ذلك وقد تضافرت الكتب السماوية ودلت الدلائل
العقلية وقامت الحجج اليقينية على ان عالم الآخرة اوسع من
السموات والارض وما بينهما . وما جواب هذا المتخيل اذا
سئل عن تلك النجمة كيف يحصل فيها النعيم المقيم مع ما ورد ان
بعض أهل الجنة من المؤمنين يأخذ قدر الدنيا عشر مرات
مع انه آخرهم دخولاً (انظره في الشمائل للترمذي) واذا كان
هذا حال اقل أهل الجنة فكيف بالصالحين الابرار بل كيف
يكون حال العلماء العارفين وكيف بالانبياء والمرسلين ﴿ وللآخرة
أكبَرُ درجاتٍ واكبَرُ تفضيلاً ﴾ وكم ورد فى سعة الجنة
ونعيمها مما لا يتناهى حتى ورد تقديرها لعموم الخلق باعظم
ما يتخيلونه من عالم المساحة ولا مساحة اوسع من السموات

والارض فقال تعالى *(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)* مع انها اجل واوسع واعظم من ذلك فاين النجمة التي هي ذرة صغيرة من عالم السموات بل أين السموات والارض وما بينهما *(والله واسعٌ عليمٌ يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا وما يذَّكَّرُ الا اولُوا الألبابِ)* ولأُمسكَ عنان القلم عن الخوض في عباب هذا البحر ففي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

الكلام في مبدأ العالم ومذهب لابلاس

واعلم انهم كما تخيلوا الآخرة فحكموا عليها بآرائهم تخيلوا مبدأ العوالم بحسب ماظهر لهم من الادلة المناسبة لعلومهم فقد تخيل (لابلاس) واتبعه جميع الغربيين ومن نحا نحوهم من الشرقيين ان جميع هذه العوالم كانت غازا منتشراً في الفضأ الذى لايتناهى متحركا بحركة مستمرة لازمة فأخذت حرارته تشع شيئاً فشيئاً ولما كثر الدوران والشع بالطبع انضمت الاجزأ لبعضها وتكونت شموس كثيرة وهذه الشموس لم تزل تدور حول نفسها وتقطع دوائر مخصوصة ثم انفصل عنها سيارات وتوابع وذوات اذناب وغير ذلك وهذه الارض جزء من شمسنا انفصل عنها ودار حولها ثم برد على توالي السنين وانفصل عنها القمر قبل ذلك ولصغر حجمه

برد اولا ثم بردت هي ثانيا وجمدت وصار عليها سائل وهو الماء وغيره والشمس لم تزل الى الآن غازية وقالوا انه كلما كان الجسم اكبر ابطأ شعه وكلما كان اصغر اسرع شعه ولذلك خرب القمر الآن بعد عمارته وقول (لابلاس) هذا قد استأنسوا له بوضع قليل من الزيت في سائل الكؤل واداروه بابرة فدار الزيت واخذت تنفصل منه قطع حوله وهذه القطع دارت بدوران الاصل فقاسوا النظام الشمسي على النظام الزيتي فالشمس كالقطعة المركزية والسيارات كالاجزأ التي انفصلت منها ودارت حولها بدورانها واخذت اشكال الكواكب السيارة من التكوير والانتفاخ في خط الاستوأ والتبطيط في القطبين والاتجاه في الدوران وما ذكروه من الدليل الزيتي فهو قياس تمثيلي وهو لايغني في القطعيات كما هو مقرر في المنطق ونحن انما نبحث في العلوم العقليه والظن في العقليات لايغني شيأ وما ذكروه من الشع المتقدم في الاكبر والاصغر لايقوم دليلا اصلا لوجوه . اولا ان القمر الى الان لم يعلم حاله بالتحقيق بل ولا الشمس . ثانيا انهم لم يستقروا جميع الكواكب السيارة حول الشمس فضلاً عن غيرها من الشموس الكثيرة . ثالثا على فرض الاستقراء الذي يعجز عنه كل البشر فهو لايعد دليلا اذ لايفيد القطع : رابعا ان هذا من باب الاستدلال بثبوت اللازم على ثبوت الملزوم وهذه القضية في المنطق عقيمة اذ قد يكون للازم ملزومات كثيرة فاذا قيل لنا راينا نوراً لم نحكم بوجود شمس لجواز ان يكون نور كوكب او سراج او

غير ذلك وبهذا يرد ماسنذكره عنهم مما حققوه فى نظام الكواكب من
تشابهها ونستنتج ان ذلك لايقطع بوجوب الاصل الذي قاله (لابلاس)
والذي اراه بل اعلمه ان (لابلاس) جعل هذا من التخيلات المستحسنة
ولا بأس به ولم يجعله معتقداً يقينياً ونحن لا نخالفه فى ذلك بل نجوزه
ولكن من العجيب انا نري من لاتدبر عنده من دارسى تلك العلوم
يأخذه اعتقاداً صحيحاً غافلاً عن ان صاحب القول جعله فرضاً لا اعتقاداً
ويظن بذلك انه عرف الآخرة والاولى حتى اذا جلست مع من يشار
اليه بالبنان فى العلم اخذ يحدثك عن خلق العوالم يفصلها تفصيلا على هذا
المذهب لا على سبيل انه من باب الجواز العقلى كما هو رأي صاحب
المذهب بل يقطع بانه هكذا وهذا دأب شباننا اليوم يظنون المتخيل
من الغربي مبرهناً عليه وما اشبههم بمن تقدمهم من صغار الفلاسفة ابان
شبيبة الدولة العباسية حين نقل العلوم الفلسفية من اليونانيه الى العربية
فلقد كانوا يأخذون ما سمعوه قضايا مسلمة وهم لا يشعرون بحقائقها
وما اريدت له لما يسمعون من اسماء الحكماء الهائلة (كارسطاطاليس.
وافلاطون. واورفيه. واوميروس. وابراقليط. وديمقراط. وسقراط.
واقليدس) كما هال هؤلاء من قولهم (لابلاس. كليبير. نوتون.
※(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ
قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)※ ونحن ننكر الجزم بها مع
عدم صحة الدليل عليها.

مذهب داروين

ونظير هذا مذهب داروين ومن نحا نحوه من العالم في هذا القرن
من أن أصل الانسان هو القرد فهذا العالم قد نص بنفسه على انه
لم يصل الى تحقيق هذه القضية لانه لم يعثر بعد علي حلقات من
سلسلة الترقي مفقودة بين القرد والانسان ومع عدم قطعه بذلك
الخيال تري القوم فى ديارنا يأخذونه اعتقاداً صحيحاً وفاتهم ان
صاحب المذهب لم يجزم به وهذا شأن المقلد

شبهة لابلاس وداروين

واعلم ان الذى حمل لابلاس وداروين على القول بهذين المذهبين تشابه
هذه العوامل فترى بين الكواكب تشابهاً فى الحركات ونسبا محفوظه
حتى ان جميع السيارات التى استكشفت للآن مشتركة فى هذه الامور
(١) الكوكب مستدير مفرطح من جهة قطبية (٢) الكوكب يتحرك
حول نفسه (٣) اتجاه جميع الكواكب فى تلك الحركة واحد (٤) تدور
كلها حول الشمس (٥) اتجاهاتها واحدة في هذا الدوران (٦) ترسم
منحنيات مقفله تكون قطوعا ناقصة تشغل الشمس احدى بورتيها (٧)
المثلثات التي قواعدها مرسومه فى أزمان متساويه وسطوحها مرسومه
بانصاف الاقطار البوريه لاى سيار حول الشمس مناسبة للازمنة المستعملة

لقطعها . فالمثلثات التي قواعدها مرسومة فى أزمان متساويه تكون
متكافئة فى المساحه فمتى ضوعفت المدد ضوعفت مساحات المثلثات على
حسبها . (٨) مربع مدد دورات السيارات حول الشمس مناسبة لمكعبات
مقادير محاورها الكبرى فيكتفى بمعرفة دورات السيارات لاستخراج
مقادير تلك المحاور . (٩) جميع أجزاء المادة ينجذب بعضها الى بعض
بقوة مناسبة طردا لجسمياتها وعكسا المربعات ابعاد بعضها عن بعض . وكفاك
في الرد على عدم القطع بدلالة ماقدمناه فى الوجوه الاربعة اذ اللازم
لا ينتج وجود الملزوم ولولا خوف الاطالة وملل القارىء لفصلت
البرهان العقلي تفصيلا على ذلك ولكن في الاشارة بذلك مايغنى

ثم تنظر الى السفليات فترى بين الممالك الثلاث تشابها فى الصور والاشكال
والقوى والاعضاء فالسلسلة آخذه فى الترقى من أصغر نبات الى اعظمه
ثم ترتبط باقل حيوان وهكذا تأخذ في الترقى الي القرد الذى هو أقرب
للانسان الذى يليه الملك ولا يسع تفصيله هذا المختصر كل هذا نص عليه
الاقدمون وهو من نتيجة ابحاثهم وقد كنت اطلعت عليه في كتبهم قبل
أن أقرأ العلوم الحديثه ولما رأى داروين هذا التشابه العجيب حتى كأن
بعضها مشتق من بعض قال بهذا المذهب الذى انتشر فى الآفاق وقد
علمت أن ذلك التشابه فى العلويات والسفليات لايقوم دليلا على زينك
المذهبين فكل من قول (لابلاس وداروين) لم يقطعا به كما قدمنا والعقل
يجوز ماقالاه

حكمة تشابه هذه العوالم

ولعلك تقول لِمَ وضع هذا النظام على ذلك التشابه العجيب حتى
كأن العوالم كلها مشتقة من أصل واحد . نقول سبب ذلك أن
الحكمة الالهية اقتضت هذا التشابه فى هذا النظام البديع (حتى
كأنها دلالة واضحة على وحدة الصانع في جميع المظاهر) لتصدر
النتائج الكثيرة التي لاتحصل الا بذلك التشابه . أما وحدة الصانع
فان هذه العوالم العلويه بينما نراها مختلفة الصور والاشكال متعددة
منتشرة اذ نراها من جهة أخرى تحذو نهجاً واحداً *(ماترى في
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)* بل العالم كله كجسم واحد وجميع
ما فيه كأعضاء متشابهة تقاربت في الخلق لتتحد في العمل ولو
كانت متنافرة لاختل النظام فلولا تشابه الكون كله ماانتجت
تلك الاعمال العظيمة التي لا تتناهى

انظر وتأمل حق التأمل فيما بين العلوي والسفلى من الارتباط
فهاك مسئلة (البندول) كيف تراه يقطع اقواساً متساوية فى
ازمنة متساوية اذا لم يتجاوز قوسه اربع درجات او خمساً
ما ينشأ من ذلك . نشأ منهُ ان العالِم (هيجن) استعمله منظما

للساعات الدقاقة التي بدونه لا يمكن تمام نظامها كما
أوضحهُ علماء الطبيعة ثم تلك الساعات المضبوطة قد تنتقل
حركتها الى الآلة الاعتدالية المشهورة فى علم الفلك التي تنطبق
دائرتها على دائرة المعدل ومحورها على محور العالم ويجعل
مستويها مشتملاً على نجمة حيثما اتفق فيكون لتلك الدائرة
حركة منتظمة مدتها يومٌ نجمي بالضبط فانظر ما ترتب على
ذلك . ترتب عليه انهم تتبعوا النجوم بتلك الدائرة فرأوا ان
سيرها موافق لسير الدائرة بغاية الدقة فياعجباً لولا تشابه
النظام فى العوالم ما استدل الانسان بتلك الحركة الناشئة من
البندول الناتجة من الجذب الارضي على انتظام سير النجوم
جميعها حتى اثبت بذلك ان الحركة اليومية لجميع النجوم منتظمة
فتارة يحكم الانسان بالعلوى على السفلى وأخرى بالسفلى على
العلوي فانظر أكان ذلك لظهور وحدة الخالق فى السماء
والارض ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ثم لولا
المناسبة بين الممالك الثلاث لم يمكن ان يساكنها الانسان فى

الارض وكيف يكون خليفةً على ما لم يكن من جنسه القريب
او البعيد ولولا تقارب الاذواق والاشتراك فى الجنسية لم
يحس بآلامها ولا بما ينفعها مما يضرها فلذلك كله كانت
الاشكال متقاربة وليس دليلاً على الاشتقاق فمذهب النشؤ
والارتقاء تخمين وخرص ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ﴾ نعم يتبعون الظن ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا﴾ نعم بحثوا ودققوا في ساحل بحر الطبيعة ولم يصلوا
الى عشر معشار العلم بها فلم يهتدوا لنهايتها فلم يصلوا للخالق
جل وعلا انما وجهتهم الحياة الدنيا ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى
عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾
ظهرت الآيات البيّنات بخرق العادات وزوال سحب الضلالات
عن خواص البشر ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ
مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ كشف لهم
ستار الطبيعة ورأوا فيها أموراً وراء ما تخيلوه ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فاذا

نظرنا الى شريعتنا المطهرة وقارناها بهذين المذهبين رأينا
ظواهرها اسمى وهى لا تعضدهما ولكن المدار على الدليل
العقلي فان ثبت به احدهما او كلاهما (ودون ذلك خرط القتاد)
فما اسهل ارجاع تلك الآيات الى ما ثبت ولكن هيهات هيهات
﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ
وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ومن العجيب ان هذه
الآية صريحها ردّ على المتعرض لمنشأ العالم والانسان .

الكلام فى ان ابحاث العقل لا تناقض الدين

ان ابحاث العلم لا تناقض الشريعة بوجه من الوجوه اذ النبي
صلى الله عليه وسلم عرفنا صدقه بعقولنا فكيف تناقض شريعته
العقل بل يستحيل أن يناقض الدين العقل ومن قال بذلك فلا
يدرى ما يقول بل ربما تعارض عليه نصان من الشريعة
مختلفان لا يعرف تأويلهما فينسل من الدين وهولا يشعرواذا
لم تتسع فكرة الباحث الى معرفة الغرض من النصين
المتعارضين في نفس الدين فكيف يمكنه ان يصدّق مطابقته
لما يستكشف من اليقينيات ﴿ وَمَنْ كَانَ فى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ

فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ فمن ظن ذلك التناقض فقد
جني على الدين جناية عظيمة وضل وأضل

قال (في الاحياء عند الكلام على أحوال القلب) فالعلوم العقلية
غير كافية في سلامة القلب وان كان محتاجاً اليها كما ان العقل غير كاف
فى استدامة صحة اسباب البدن بل يحتاج الى معرفة خواص الادوية
والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء اذ مجرد العقل لا يهتدي اليه ولكن
لا يمكن فهمه بعد سماعه الا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى
بالسماع عن العقل فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية
جاهل . والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور
فاياك ان تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الاصلين فان العلوم
العقلية كالاغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستضر
بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها الا
بالادوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والاعمال التى
ركبها الانبياء صلوات الله عليهم لاصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه
المريض بمعالجة العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما
يستضر المريض بالغذا وظن من يظن ان العلوم العقلية مناقضة للعلوم
الشرعية وان الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين
البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما تناقض عنده بعض

العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن انه تناقض فى الدين
فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وانما ذلك لان
عجزه فى نفسه خيل اليه نقصاً فى الدين وهيهات وانما مثاله مثال
الاعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها باوانى الدار فقال لهم ما بال هذه
الاوانى فى غير مواضعها فقالوا له تلك الاوانى فى مواضعها وانما أنت
لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك انك لا تحيل عثرتك على
عماك وانما تحيلها على تقصير غيرك بنسبة العلوم الدينية الى العلوم العقلية
انتهى بحروفه .

فان قلت ان المتعلمين فى المدارس ينزعون الى مذهب لاپلاس
في اصل تكوين العالم فهل هذا يضر فى اعتقادهم اقول لا بل
ربما يستأنس لهم بقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ وغيرها من الآيات
المذكورة (فى الرسالة الحميدية) وحينئذ يقال ان الله تعالى
خلق اولا مادة العالم شيئاً واحداً وقد سماه الله تعالى عندما ذكر
مادة السماء دخانا وفسروه ببخار الماء وهو السديم المنتشر فى
الخلاء ثم فتق الله السموات والارض اى انه ميز مادة السماء

عن المادة التى يريد ان يكوّن منها الشمس والكواكب
والارض ثم رفع مادة السماء فوق مادة المذكورات ثم كوّن
الشمس وفصل عنها الكواكب والارض ولكن الارض
كانت بعد فصلها غير مدحوّة اى بصورة لا تصلح للسكنى
ثم قصد سبحانه الى السماء وهى دخان اى بخار ماء وهو السديم
فسوّاهن سبع سموات والسماء لا ترى وانما المرئى هو الهواء
ثم دحا الارض بعد ذلك وكل هذا ذكره صاحب الرسالة
الحميدية واجراه على اقوال عن أئمة الدين واكابر المسلمين
وان اردت المزيد فعليك بالرسالة المذكورة فانها تشفى الغليل
فى مباحث كثيرة فهذا نقوله لمن جمد على مذهب لاپلاس .
اما نحن فقد وجدنا ان براهينه ليست يقينية بل ظنية ودرسنا
الفن كما درسوه فالكلام فى العقليات الان لا فى الظنيات

كيف يبحث الدّين فى العوالم وما ثمرة ذلك البحث

الدين يبحث عن العالم من حيث دلالته على الصانع بل كل
الاديان النازلة من السماء هكذا تنبه الافكار عموماً الى النظر

الى الصنعة الالهية وسواء كانت العوالم فى الاصل غازاً او
سائلاً او جامداً خلقت كرة واحدة او كرّات متعددة بهذا
الوضع او بغيره مما لا يتناهى فهو مما يدل مع كل هذه التقادير
على انه الصانع فقدّره كما تشاء. ومن ظن فى الدين غير ذلك
فلم يفهم منه شيئاً نخذ اللب واترك القشر قال تعالى *(انَّ فى
ذَلِكَ لآياتٍ لأُولي الأَلْبَابِ الذين يذكُرُونَ اللّهَ قياماً وقُعُودًا
وعلى جنُوبِهِم)*يشير بذلك الى انهم يبحثون عن لب المقصود
من هذا العالم الا وهو ذكر الله على أى حال كان العالم ثم ان
الذكر يعقبه الفكر وهو استخراج دقائق العلوم التي بها كمال
النفس الانسانية والنزوع عن البهيمية والتغلغل فى تلك المعارف
فلذلك أعقبه بقوله*(وَيَتفكَّرُونَ في خَلقِ السَّموَات والأَرض)*
واشار الى طريقه فقال ﴿ رَبَّنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ عبثاً
﴿سبحانكَ فقنا عذاب النار﴾ وكما ان صور المخلوقات
لا تتناهى والمقصود من كل صورة ما وراءها من الجمال الالهى
كذلك المقصود من الاعتقادات المنتشرة في أفكار الناس من
حيث هذا العالم ما وراءها ولا تزال الافكار ترتقى في المعلومات

وكلما ظنت انها وصلت للنهاية رأت وراءها مراقي لا تتناهى.
كيف ونحن لو وقفنا على ماهيات العالم الآن لكنا فى عذاب
دائم اذ يقف العلم عند حد محدود والوقوف عذاب كبير فالله
لا حدّ له والعلم بمصنوعاته لا نهاية له بل لا يقف على تفاصيل
العالم الاَّ صانعه وحده الاَ ﴿ فاعتبرُوا يا اولي الابْصار ﴾
الاَ فاقرؤا كتب المطلعين على بعض عالم الغيب من الصوفية
بل اقرؤا كتب الغربيين فالافكار تتغير والعلم يترقى ولا آخر
لهُ لا فى الدنيا ولا فى الجنة بل لا يصل اكمل الوجود صلى
الله عليه وسلم الى علم كعلم الله مع ان الله يقول له ﴿ وللآخرةُ
خيرٌ لكَ من الاُولى ولسوْفَ يعطيك ربُّك فترْضى ﴾ اشار
بذلك الى الترقى فى الدنيا وفى البرزخ وفي الآخرة له صلى
الله عليه وسلم وهكذا أهل الجنة كل على حسب مرتبته ولو
اطلعنا فرضاً على نهاية العلم فأين الترقي اذ ذاك. ونحن لا نفرح
الا بالجديد ولكل جديد لذة فثبت من هذا انه لا يجمد على
فكر واحد من ظنون الاستكشافات والآراء الا جامد
القريحة مقلّد وهو من الفريق الذى جهل ﴿ واتَّبعَ هواهُ

وكان أمرُهُ فُرُطاً)* فعقل الانسان اجلُّ من ان يقف على
فكر واحد واذل من ان يصل الى نهاية الحقائق اذ لا يعرفها
الا الواحد ولقد رأيت فى كتاب (الفصوص) للشيخ محيي
الدين بن العربي امام الصوفية ما يفيد هذا ٠

المطابقة بين كلام فلاسفة اوروبا وعلماء الاسلام فى الصنعة والصانع

ولعمرى ان من درس العلوم الطبيعية وكان ذا بصيرة تامة احق
وأولى بان يعرف قدرة الصانع ويقر بالعجز عن ادراك كنه هذه
العوالم قال العلامة محمد بيرم التونسى فى كتابه (صفوة الاعتبار) ان
حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف والتحاليل والآلات الى مالم
تبلغه فلاسفة الاقدمين حتى زيفوا لهم كثيراً من خرافاتهم وبينوا
خطأهم فهولاء حذّاقهم اقروا بانه لا بد من خالق لما هو موجود
اذ ما يعللون به كثيراً من الاشياء من قولهم الجاذبية والنواميس
الطبيعية قد صرحوا بانها عبارات اصطلاحية والا فحقائقها امور مجهولة
يلزم متبعها بالاعتراف بالصانع فمن هولاء الحكيم المتبحر (فيلكس
لاميروس) وهو من مشاهير فحول علمائهم فى القرن التاسع عشر
المسيحى فقد صرح فى كتابه فى الجغرافيا المسمى (بالدراسة الاولية
فى الجغرافيا الطبيعية) وعليه مدار تعاليمهم فيها بانه اذا زال التثاقل

العمومى من الهواء فانه يتشتت فى الفضاء كل ما على الارض الى ان
قال ولكن الحكمة الآلهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها فى
مواضعها الشاغلة هي لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا فعلها تسمى
بالجذب وهى كله يعلم منها الفعل لا السبب اذ هذا الاخير مع كثرة
بحث الطبيعيين عنه وتفتيشهم عليه لم يزل مجهولاً الى الآن وعلى
المتولع بدراسة العلوم ان لا يأخذ بظواهر مثل هذه الكلمات التى
يوضح بها سبب او اسباب كثيرة طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث
فاذا قيل ان الاجرام تزن او تثقل لانها مجذوبة لغيرها او انها
جارية على مقتضى نواميس كان ذلك الدور المعيب الى آخر عبارة
هذا الحكيم الغربي الاوروبي في هذه الاعصر الاخيرة ٠ واقول انا
قارن يا اخي (ارشدنى الله واياك الى الفهم والعلم) هذا الكلام بما
قاله حجة الاسلام الغزالى فى القرن الخامس من الهجرة حينما ذكر
اعمال التغذية فى داخل الجسم وانها بقسطاس مستقيم واطال فى ذلك
وان فى الجسم ملائكة كل منها موكل بعمل يعمله كعمال المدينة وصناعها
وشرحه بما يطول مما لا يسعه هذا المختصر الى ان قال ولا بد من سابع
(اي ملك سابع) يراعى المقادير فى الالصاق فيلحق بالمستدير مالا
يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل
تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حصته فانه لو جمع مثلا من الغذاء
على انف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر انفه وبطل تجويفه وتشوهت

صورته وخلقته بل ينبغى ان يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعضها الى ان قال ولا تظن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع لا يدرى ما يقول اه .

فانظر كيف وافق كلام (فيلكس لاميروس) الذى هو امام فى اوروبا في علم الطبيعة فى القرن الثالث عشر من الهجرة كلام (حجة الاسلام الغزالى) فى القرن الخامس منها فى ان هذه الموازين التى في هذا الكون انما هى أمور آلهيــة فسماها الغزالى ملائكة تعقل وتهندس وتفعل مالا يفعله الانسان ووقف الاوروبى عند الادب ملتزماً خطة الحياد فقال هى مجهولة لا اعلمها وهذا مقامي من المعارف ومن هنا نفهم قوله بداية العالم نهاية الجاهل فان معرفة الله عز وجل عامة فى العالم الانسانى ولكن ليس يعرفها الطبيعي الذى ترك الفطرة الاصلية الا اذا انتهى فى علم الطبيعة ولا يهولنك جهلهم به فانهم يدرسونها بدون نظر الى طلب الحق أمّا من درسها ونفسه مستشرفة له وصحب معه الفطرة من البداية زادت معرفته لمبدع الكائنات بتلك المباحث

توضيح للمقام وازالة للاوهام

ولعلك تقول قد صرحت فى كلامك ان علماء الطبيعة احق الناس بمعرفة جمال الخالق وبهائه وحكمته وقد حث فى آيات كثيرة من القرآن على التفكر في المصنوعات اذ هي أُس التوحيد وعليها مداره فى القرآن والاحاديث حتى قال صلى الله عليه وسلم لما قرأ ﴿ انَّ فى خَلْق السَّموات والأَرْض ﴾ الآية. (ويْلٌ لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سَبَلَتَهُ) اى تجاوزها من غير فكر فياعجباً كيف نرى بعض المشتغلين به لم يقرّوا بالصانع كما اشتهر فضلاً عن خشيته وحبه ايكون الشيء الواحد سبباً للضدين ام ماذا يكون ؟ نرى المشهور على الالسنة ان الطبيعيين ينكرون الصانع . فأقول جواباً عن هذا السؤال

اعلم ان الطبيعيين على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون الى قسمين قسم لم يعرف الصانع لعدم توجه هممهم اليه وهم قوم دهريون لم يعدوا فى الحكماء وليس لهم اثر يعول عليه فى التاريخ . وقسم شرَّحوا الحيوانات ورأوا فيها ما يدهش العقل والفكر فاقروا بوجود صانع لها ثم ترقوا عن

هذا الى الاقرار بخلود النفس ومنهم الحكماء السبعة الذين هم
اساطين الحكمة وهم(تاليس .وانكساغورس. وانكسيماتس .
وانبذقلس . وفيثاغورس . وسقراط . وافلاطون .)
وهؤلاء منهم المالطية والسامانية والاثينية ثم تتابع بعدهم
الحكماء فى اليونان.(كارسطاطاليس.وابقراط .وديمقراطيس)
والشعراء والنسّاك وغيرهم وكل هؤلاء يدور كلامهم على
وحدانية الخالق وتمجيده ومعرفة الحقائق وتهذيب النفس
كما تحث عليه الشرائع لا سيما الاسلام هذا فى الحكماء
الاقدمين . واما حكماء هذا العصر المشتغلون بالطبيعة فكلهم
مقرّون بالصانع سبحانه وتعالى وليس يشذ منهم الا النادر
الذى لا حكم له بل هو الآن معدوم ولا يهولنك هذا
الشذوذ فان الطبيعة من أفعال الله سبحانه كما ان القرآن والكتب
السماوية من كلامه وقد قال فى حق القرآن ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا
وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ثم أفاد ان الذين يضلون به هم الفاسقون
اى الخارجون عن أصل طبيعتهم وهى المعرفة بالله تعالى التى
هى فطرة وطبيعة في الانسان جبلت عليها النفوس ﴿ فِطْرَةَ

اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وكما يضل ويهدى بقوله يضل
ويهدى بفعله والا فاذا نظرنا للحقائق نرى ان الموحدين
العارفين بالطبيعيات هم اقرب الناس الى الله واكثرهم بهجة
بجماله وقدرته فى هذا الملك واعرف بحكمته وهذه العلوم هي
انفس مايدرس واجمل ما يعبد به الخالق غاية الامر ان الناس
مختلفوا النظر فمنهم من قصر نظره على ظواهر الطبيعيات
ومنهم من عرف ما وراءها وترجع الاسباب الى احد شيئين
اما صرف الفطرة من ابتداء زمن الصبا عن وجهتها مع
القصور في علم الطبيعة واما افكار المعلم وكلاهما يرجع الى
المشيئة الازلية على ان علوم الطبيعيات غير الآلهيات فلا يظهر
جمال الحق للطبيعى الا اذا استضاء بالآلهيات وكما ان العناصر
الارضية ميتة مظلمة وانما يأتى لها الضوء والحرارة من
العلويات فيهتدى بها فى ظلماتها وتحيى بعد موتها وتنمو نباتاتها
وتثمر اشجارها كذلك العلوم الطبيعية فى الاذهان لا تثمر معرفة
قدرة الصانع الاّ اذا أشرقت عليها أنوار العلوم الآلهية فاهتزت
فى العقول وربت وانبتت من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى

لكل عبد منيب فظهرت فى صحائف الافكار عجائب جمال الحضرة الآلهية من العلوم والمعارف التى هى جنة عالية قطوفها دانية لا مقطوعة ولا ممنوعة فلا بد من ذلك النور الآلهى الذي شهدت به الفطرة ﴿ اللهُ نورُ السمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾ فان لم تستمد من تلك العلوم فهى موات فى الذهن كما تكون مواتاً فى الخارج اذا لم يشرق عليها أنوار العلويات فلا هى ذات أنوار ولا ازهار ولا تنبت الاشجار . فنتج من هذا الجواب ان من وصل الى النهاية في علم الطبيعيات عرف الحق وكذا اذا صحب الفطرة الاصلية بل هذا يكون من المقربين العارفين فان لم تصحبه الفطرة لم يهتد الا بعد نهايتها وفي اثناء البحث لا يمكنه الهداية وليس يجمد على الطبيعيات الا مقلد فى معرفتها غير باحث بعقله منصرف عن فطرته بل هو مسلم لمن قبله على حسب ما يسمعه منهُ .

فضل علماء الهيئة والفلك

ثم ان علماء الهيئة والفلك اقرب الى معرفة الخالق لان افكارهم ارق ومباحثهم اشرف. فالمباحث ثلاث . طبيعيات . ورياضيات . و آلهيات وكل واحدة منها مقدمة لما بعدها واشرف مما قبلها . ثم ان مباحث

الفلك والعناصر لا يلزم فى دلالتهما على معرفة الخالق ان تعرف حقائقهما على ما هى عليه بل خواصهما ونتائجهما وما فيهما من الغرائب اذ المقصود منهما امران الامور الدنيوية من الحساب الفلكي والزراعات وغيرها . ومعرفة الصانع سبحانه وتعالى وهما لا يتوقفان على معرفة حقائق تلك المعلومات .

بيان ان المادة تغذي العقل بالتفكر فيها كما تغذي الجسم بتعاطيها

وكأني بك تقول اراك تذكر كثيراً ان القرآن يجعل لهذه الاشياء وجهتين دينية ودنيوية فهل لهذا من دليل واضح .

أقول نعم قال تعالى فى سورة . ق . ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فيها رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فيها من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فانظر هنا كيف جعلها تبصرة وذكرى لبعض العباد وهم المنيبون وحدهم ولم يعمم هذا الحكم وانظر كيف اردفها بقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فأَنْبَتْنَا به جَنَّاتٍ وحَبَّ الحَصِيدِ والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً للعباد ﴾ فكيف جعلها رزقاً للعباد وعمم

هنا في الرزق وخصص هناك والمادة واحدة والفطر تختلف
والعلوم تتكيف فى النفس على حسب استعدادها
وفى الفكر نيران وفى الفكر جنة * وما اكثر الآلام الا من الفكر

زيادة شرح وايضاح

كما ان حساب الفلك لايختلف على فرض دوران الشمس او الارض
كذلك جمال الله ظاهر في الكون على فرض كون الارض مستقرة
اوسائرة وقد المعنا الى بعض ذلك فى كتابنا جواهر العلوم فارجع اليه
ان شئت فمهما فرضت هذا الملك على اي شكل من الاشكال فهو غريب
عجيب ومعرف بالصانع ومظهر للحساب الذى يعرفنا احوالنا المعاشيه
فاذاً لا لزوم لمعرفة الحقائق على ماهى عليه ومعرفتها للبشر مما لا فائدة فيه
وجل الله ان يعلمنا ما لا يري لنا فيه حكمة اذ هذا يناقض حكمته
وقد نتج من هذا اختلاف القدماء بادلتهم العقلية في ثبوت الجزء الذي
لا يتجزأ ونفيه حتى جاء قوم ووجدوا ان ادلة الفريقين مستوفاة
بحسب البراهين المنطقية فقالوا بان العالم لا وجود له لان الاجزاء
التى تركب منها اما متناهية او غير متناهية وكلاهما باطل بالدليل الحق
والبرهان القاطع والادلة المتعارضة فلا وجود للاجزاء ولا ما تركب
منها وهو العالم فالعالم لا وجود له وهؤلاء هم السوفسطائية ونتج
ايضاً اختلاف العلماء فى مسائل كثيرة لعدم الوقوف على حقائقها

كالكهربائية والمغناطيس والنور والجاذبية ولذلك ماورد القرآن الا
بالاجمالي من العجائب لا التفصيلي المؤدي الى الاطلاع على اصل التكوين
بكنهه اذ الوصول الى نهاية الاشيأ غير ممكن فأنه لم يخلقنا لننظم ملكا
كملكه ولو كان كذلك لاطلعنا على سر فعله حتى نعرف سياسته
ونقلده بل خلقنا الى امد معلوم فنعيش ونعرفه ومن العجيب ان كلامه
المنزل يؤول على كل قول يقوله الباحثون لانه جعله في تلك المواضع
متشابهاً * (والراسخون في العلم يقولون آمنابه) * فافهم على ان احتجاب
أغلب الحقائق عنا داع الى نمو قوانا العقلية ونحن انما خلقنا في عالم
التربية فلو وقفت عقولنا على الحقائق مرة واحدة لكان خرقا للناموس
الذي فطرنا عليه .

نفى شك واثبات يقين

ولعلك تقول انك بهذا خالفت كلام الحكمأ فأنهم قالوا الحكيم هو
الذي يعرف حقائق الاشياء على ماهى عليه وانت تقول لايلزم ذلك .
اقول انهم قالوا الحكيم يعرف حقائق الاشيأ على ما هى عليه بحسب
الطاقة البشرية ولقدبنوا على هذا ان الحكيمين يتناقضان فى افكارهما
وكل منهما يعد حكيماً فمثلاً من قال من اليونانيين ان اصل العالم
الارض ومن قال اصله المآء ومن قال الهوآء ومن قال النار ومن قال
هو اجزاء صغيرة منتشرة فدارت دورات كثيرة حتى تكونت منها

هذه الصور والاشكال ونسج على منوال هذا الاخير (لابلاس) ونسبه لنفسه ووسعه كما هو شأن علماء اوروبا من نسبتهم ما للاقدمين من المذاهب لانفسهم مع تصرفهم فيها كما يشهد بذلك (سيدبو) في كتابه مما يسجل عليهم عار الدعوة الى آخر الدهر فكل قائل من أولئك الحكماء، يسمى حكيماً مع ان كل منهم يناقض الآخرين لانه عرف بالبرهان العقلى على مقتضى الطاقة البشرية وان كان الواقع يجوّز خلافه اذ بعضهم مخطىء قطعاً لان النفى والاثبات لا يجتمعان فليس المراد بمعرفة الحقائق الوصول الى كنهها بحسب الواقع ونفس الامر فان هذا اختص به مبدعها اما غيره فانه لا يزال يترقى في العلوم الى مالا يتناهى حتى فى عالم الآخرة اذ فيها ارتقاء لا يتناهى فى معرفة الخالق وقدرته وعجائبه وحكمه وجماله واحب شيء الى الانسان ما منع هكذا الفطر الانسانية ولو وقفنا على الحقائق حسب الواقع ونفس الامر لم يبق ترق فى العلوم بل مرتبة ملك الملوك اجل من ان يطلع عليها او يوقف على كنهها . فانظر كيف جعل نظام امرنا مبنياً على خفاء الحقائق حتى اختلفنا فيها *(ولذلك خلقهم)* فأتم نظام حياتهم وكيف جعل فى الحيرة خيراً كما جعله فى العلم فتأملوا يا اولي الالباب .

آداب واخلاق

اعلم ان أدلة العلوم تارة تكون عقلية وهذه لا تقبل النقض

بوجه من الوجوه كبراهين الهندسة والحساب . وتارة تكون ظنيّة لاعتياصها كادلة علم الطب اذ هى ظنيّة بعلامات قد تصيب وقد تخطيء وكالفرض الذى تخيله (لاپلاس) فى مبدأ العالم فمن لم يفرق بين العقلى والظنى حكم بكل ما يعرف له دليلاً مقبولا او مشهوراً او معتقداً اعتقاداً عاماً وذلك هو وصمة الجهل قال تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ وقال حجة الاسلام الغزالي من لم يعرف المنطق لا يوثق بعلمه وقال بعض فلاسفة اليونان من لم يعرف الهندسة فلا يدخل منزلنا ، وذلك لانها تمرن العقل على البراهين العقلية الصادقة ويتبع ذلك الاخبار ومعاملات الناس . فاياك ان تقول مالا تعرف له أصلاً محققاً في اليقينيات او مظنوناً في الظنيّات واحترس من الوشاية بل تفطن لاقوال الوشاة ثم احكم بعد المعرفة قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ اي فتثبتوا

خشية ان تصيبوا قوماً بجهالة ومن الاسف اننا نرى كثيراً
من شبان الشرقيين عموماً والمصريين خصوصاً يتلقفون كلمات
أثناء الدراسة ولا يعرفون لها براهين ثم يظنونها علوما حقيقية
مع ان الذين نقلوا عنهم هذه العلوم تترقي كل يوم افكارهم
ويتركون ما قرروه اولا وذلك من الجهل ووصمة الخزى

وسم الدين بما ليس فيه جهل بالعلوم الجديدة وقصور فى مدارك اغبياء شبان الوقت الحاضر

وبينما انا أبيض هذا الكتاب اذ وصلت اليَّ مجلة (الحياة)
لحضرة منشئها الفاضل محمد افندي فريد وجدي فتصفحتها
فوجدت بحر علم زاخر يؤيد ما استكن فى النفس من ذلك
وهنا وقف القلم عن تعداد محاسن تلك المجلة . نعم هى الحياة
الروحية الطيبة ومن شاب اشرقت روحه بانوار العلم نبغ من
بين المصريين ونقل عن الغربيين انهم تركوا مذهب المادة
ورجعوا الى ان لنا حياة بعد الموت وهاك نصه فى العدد
الثامن صحيفة ١٢٢

(بينما نرى البعض عندنا ممن يدعون التنوير زوراً يتبجحون

بنكران كل ما فيه صبغة دينية ويتوهمون بذلك انهم ارتقوا
من حضيض الخرافات القبيحة الى منصّة الحقائق الصريحة
نرى قادة العلم الطبيعي فى اوروبا وامريكا يصرحون بملء
شدقيهم انهم قد اكتشفوا حقيقة الروح من الطرق الحسية
وبالتجارب العلمية ووقفوا على سر البقاء الدنيوي والدار الآخرة
ثم قال . ولكن غرضنا الوحيد هو ايقاف عالمنا الاسلامى على
اسرار مسئلة غريبة مدهشة لم تغادر مجمعاً من مجامع العلم من
بلاد المدنية الا ودخلته حتى صار لها الآن نحو عشرين مليوناً
من الاتباع المغرمين وكلهم كما روته مجلة المجلات الفرنساوية
من ذوى العلم والدراية وصار لها نحو من مائة وخمسين مجلة
تناقش فى اصولها وفروعها وكل هذه الجريدة مملوءة من
هذه الافكار السامية الدالة على علو مدارك منشئها . اقول
ومن العجب ان كثيراً يتركون الدين تقليداً للغربيين فيا ايها
المصريون هاهم الغربيون تركوكم فاذا قال المقلّد انا الان
اعتقدت جهلي وكلامى السابق غير حق فبأى وجه يتمسك به
الجاهل المغرور. فترككم الدين لم يقم لكم عليه برهان

ولم تلقوا فيه من تقلدونه الا الجهل والجهل هو العمى قال الله تعالى ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هم الْغَافِلُونَ ﴾

موازين الناس من الميزان الذي قامت به السموات والارض

اعلم ان موازيننا تابعة للميزان العمومى الذي فى السموات والارض كالميزان المعتاد والميزان الافقي وميزان كنتز فى المخازن وميزان القبانى وغيرها فكل هذه تعرفنا المقادير بجذبها جهة الأرض ومعادلتها بما يوضع مقارنا لها فعلى هذا نرى الموازين تابعة للجذب العمومى الذى يعد التثاقل الذي على

سطح الكرة الارضية نوعاً منه فانظر كيف كانت حركة هذا الكون منتظمة والجذب عاما حتى نتج منه موازيننا التى بها يتم نظام حياتنا فهذا الميزان قسطاس مستقيم يعرفنا الاشياء الحسية كما ان القرآن قسطاس مستقيم يعرفنا مقادير المعنويات ولذلك عطفه عليه فى قوله تعالى ﴿ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ وما اشبه هذا الميزان بكواكب السماء كالشمس والقمر فانهما بها يوزن الزمان ومن العجيب ان مصدر هذا السفلى وذاك العلوى امر واحد وهو الجذب العام هذا ومما يستغرب منه ان وزن الاجسام يخف فى جهة خط الاستواء ولكن اذا عرف السبب بطل العجب وذلك ان حركة الارض هناك شديدة وسطح الارض بعيد عن المركز فضعف الجذب بهذين السببين وهما القوّة المركزية الطاردة وبعد سطح الارض عن المركز والنتيجة ان الموازين تخف كلما كانت أقرب الى خط الاستواء وتثقل كلما كانت اقرب الى القطبين لان القوة المركزية الطاردة فى الاخير اقل سرعة مع قربه من المركز فما اعظم هذه القوة الآلهية ذات الحكمة

البالغة وكيف ابدع نظام هذا الكون واعجز العقول عن ادراك
كنهه وكيف ضم العوالم بعضها الى بعض وربطها ربطاً وثيقاً
محكماً ثم جعل هذا الرابط لها هو الذى يعرفنا مقادير الاشياء

آداب واخلاق

خلق الانسان وسطاً بين البهائم والملائكة فبالشهوة والغضب
يناسب البهائم وبالعقل والشرع يناسب الملائكة وان اخذ
بجميع اطراف الشرور فهو شيطان هذا مجمل احواله ولا مفر
له من الشهوات المؤذية اذ هو حيوان طبعاً وماتلك الشهوات
الأ عقارب وحيات تلدغه في الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ
وابْقَى ﴾ وهذه تنافي طبيعة المَلَك الذى لا يلابس الشهوات
بوجه مّا واقرب وجه له يقربه من الملأ الاعلى ان يعتدل فلا
يميل الى الافراط والتفريط فى شهواته فاذا استحال ان يصل
الى درجة المَلَك طبعاً فليكن على هذا الصراط المستقيم ومالا
يدرك كله لا يترك كله وسر ذلك ان لذة الانسان الخاصة
به اذا اعتدل مزاج قلبه هى حب الله تعالى والشغف بالفكر

فى مصنوعاته وهذا التوسط يضعف حب سواه من قلبه
فيقربه منه ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ ﴾ فالتوسط واجب في
جميع الاقوال والافعال قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ وهو اشارة
الى ميزان الانفاق وهو المعبر عنه بالكرم اذ هو توسط
بين الاسراف والتقتير وقال تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
تُسْرِفُوا ﴾ وهو اشارة الى التوسط فى المآكل وهو من
العفة وقال تعالي ﴿ أَشِدَّاءُ على الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهو
اشارة الى فضيلة الشجاعة ووضع الشدة فى موضعها واللين
فى موضعه وهو الوسط المحمود وقال تعالى ﴿ واقْصِدْ فى
مَشْيِكَ واغْضُضْ منْ صَوْتِكَ انَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ ﴾ والقصد في المشي هو التوسط فيه والغض من
الصوت هو توسط بين خفضه ورفعه وقال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ

لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ﴾ فالاعراض عن اللغو هو العدل في اللسان بان يتكلم حيث يحسن الكلام ويسكت حيث يحسن السكوت واخراج الزكاة اشارة الى الكرم وحفظ الفرج عن الاجنبيات لا عن الزوجة والأمة هو العدل في شهوته والحاصل ان الانسان الكامل هو الذى يمشى على هذا الصراط المستقيم ولذلك أرشدنا الله الى ان ندعو بالهداية اليه في الصلوات ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ولتذكر تلك الاستقامة ولا يرينا ذلك الا ميزان الشرع والعقل كما رأيت . فتأمل في هذه الحكم في الانفس والآفاق وكيف جعل الجاذبية في الارض سبباً لتقدير الاشياء ثم تأمل كيف خلق العقل وانزل الشرع لنزن بهما اعمالنا وزناً معنوياً كما نزن المواد وزنا حسياً وان اردت ان تطرب بشراب كؤوس المعاني القرآنية من بنان هذه الآية ﴿ (الله الذي أنزل

الكتاب بالحق والميزان) ﴾ الآية فقد اوضحناها في كتابنا جواهر العلوم وظهر من فحواها برهان عقلي على اليوم الآخر لم نسبق به فيما نعلم فارجع اليها ان شئت هناك .

الكلام على الماء وتصريفه

عنونت هذا الباب بهذا العنوان اقتداءً بقوله تعالى ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى اكثر الناس إلا كفوراً ﴾ فقد صرف الله الماء بين الناس على انواع شتى من التصريف كما سيتضح ان شاء الله تعالى ومع ذلك كفر الناس بتلك النعمة ولم يتأملوا فيها فالحق والحق أقول ان نعم الحق سبحانه وتعالى ظاهرة للناس كافة ولكن لغفلتهم وعدم توضيح العلماء لهم كفروا بتلك النعم (اى لم يشكروها) فتأمل واجل نظرك ايها المتبصر في البحار الملحة والعذبة فانها وضعت على مقدار عظيم من الحكمة بميزان معلوم وقسطاس مستقيم

وذلك ان ماء الغدران الكبيرة والصغيرة والانهار انما جاء لها
من البحر الملح بواسطة السحاب على ما تقرر في العلوم الطبيعية
كما سيأتي . وما اعجب هذا الاسلوب فبينما نرى الماء ينزل
بطبعه من السحاب الى الارض بالجاذبية اذا هو صاعد
فى الاشجار يتقلب فى سوقها واوراقها وازهارها واثمارها
بغاية السرعة والاحكام منتقلاً من أسفل الى أعلى بعد ان كان
ينزل من أعلى الى اسفل ومن المدهشات مسئلة تغذية النبات
فان غاية ما وصل اليه الانسان ان ادرك ان له انابيب شعرية
وقد اودع فيها قوة لامتصاص الماء والعناصر الارضية امتصاصاً
قوياً لما تقرر ان الجسم الكثيف يجتذب اللطيف اليه اذ كل
الاجسام النامية من الانسان والحيوان والنبات مركبة من
خلايا كثيرة متلاصقة وهي اكياس صغيرة جدًا فيها مواد
سائلة اكثر كثافة مما يلامسها من ظواهرها من السوائل
المختلفة كالدم فى الحيوان والمواد العنصرية الذائبة لتغذية النبات ·
ولما كان ذلك الملامس اقل كثافة مِمّا احتوت عليه تلك الخلايا
كان ذلك التيّار الداخل اليها من ذلك الملامس اكثر مِمّا

يخرج منها اليه لما تقرر فى الطبيعة فكل من الكثيف الداخل
فى الخلايا واللطيف الخارج عنها يجذب الآخر ولكن جذب
الكثيف للطيف اكثر وهو المعبر عنه (بالأَنْدَسْمُوزْ) ومن
العجيب ان الخلايا لا تجذب الاّ ما يصلح لها ولا يخرج منها
الاّ ما يكون بقاؤه مضرًا بحياتها كأن فى كل خلية كيماويين
ماهرين يزنون الداخل والخارج فى كل لحظة من الزمان . ثم
اقتراب جوانب الانابيب فى النبات من بعضها مع عدم انطباقها
مساعد على سهولة ذلك الامتصاص وها هنا يندهش العقل
ويحار الفكر حين يتأمل فى ان كل المواد الارضية لها تلك
الانابيب فالحديد والنحاس والقصدير والاحجار فى الجبال
كل ذلك له فتحات صغيرة بل اجسام الحيوان والانسان
(الذى قدر فتحاته بعضهم) بنحو سبعة وعشرين مليوناً يتبخر
منها كل يوم وليلة نحو رطلى ماء كما فى المقتطف فيا للعجب
لما اختص الامتصاص بالنبات فقط والانابيب الشعرية عامة
فى الجميع ولكن هى الحكمة الآلهية التى اقتضت ان لا تمتص
تلك المذكورات والاّ لاختل النظام اختلالاً واضحاً فتبتل اذ

ذلك رأس الانسان اذا ابتلت قدمه وهكذا الحيوان وكنت
لا ترى فى الارض دابة تمشى وهكذا الجبال متى ابتل حجر
منها يبتل جميعها مع انها هي مخزن المياه فاختصاص النبات
بالامتصاص ممّا يدل على حكمة الحكيم ويدهش لب العليم .
ولكن ما السبب فى ذلك الاختصاص يا ترى . ولعل قائلاً
يقول ان فتحات تلك الاشياء لا تلائم الامتصاص اذ بعضها
مندمج كالحديد والاحجار وجسم الانسان والحيوان والبعض
متسع اتساعاً عظيما كالغربال فكانت لا يليق بها ذلك ولا
يسهل قلنا على تسليم ان هذا التعليل كاف فى ذلك فلم اختص
النبات بتلك الفتحات المقتضية لتلك الحكم الباهرة ﴿ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

حيرة العقلاء فى تعليل تنوّع النبات

دعنا من هذا كله ودع العقل فى حيرته وتأمل معي فى امتصاص
النبات اذ معلوم ان النباتات كثيرة تبلغ نحو مائتي الف نوع
وكم فى زوايا الارض من خبايا وكل واحد منها له لون وزهر

وورق وهيئة وثمر اختص به وحده لا يشركه فيه سواه
فياليت شعري ما الذى اوجب ذلك الاختلاف ومعلوم انه
اختلف باختلاف ما يتغذى به فكل نبات يأخذ من الارض
اجزاء مخصوصة به واملاحا تناسبه ولذلك قرر علماء الزراعة
ان تعاقب زرع نبات مراراً كثيرة يضعف الارض لان
المادة التى يتغذى بها تفنى فالصواب ان يزرع بعد النبات
نبات آخر فقل لى بأبيك هل كان النبات يعرف ما ينفعه فيأخذه .
اليست الفتحات متقاربة الشكل اليس الامتصاص واحدا .
هذا شيء يدهش العقول ويحير اولى الالباب .
نرى ان (الاكسوجين) و (الأدروجين) والأزوت
(النيتروجين) وهذه الثلاثة يتكون منها الماء (والهواء)
والكربون (اي الفحم) هذه الاربعة تدخل فى كل نبات
وكل واحد يمتص املاحا تختص به من بقية العناصر كالحديد
والبوتسا وغيرها فكيف ينتخب ذلك النبات ما يلائمه ويذر
مالا يلائمه فان قلت ذلك خاصية فيه . قلنا الاجابة بالخاصية
دليل على العجز عن التعليل . وان قلت لكل نبات فتحات

تتنوع على حسب الاغذية التي يمتصها ونحن الى الآن لم نحقق
هذه وانما هو من باب الجواز العقلي . قلنا ان ذلك التنوع على
فرض تسليمه يزيد فى دهشة العقل ايضاً اذ كيف تتنوع مع
صغرها الى مائتى الف نوع ام كيف يكفي التنوع لذلك الاختيار
مع ان الحيوانات المكروسكوبية تحضر جميع ما في الارض
للنبات بنسبة واحدة كما سنذكره . وهنا وقف عقل الانسان
وقال ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾

﴿ اثبات ان تلك الاعاجيب فعل عالم آخر يسمى فى الشرع بالملائكة ﴾

وَقَفَتْ يامبدع هذا الكون عقول البشر عن معرفة ظواهر
العوالم فضلا عن البواطن . اللهم ان تلك الاعمال النباتية
لا تليق الا لقوة عاقلة ولا تكفى القوى الطبيعية التى تعنون على
من اقتصر على معرفتها وجمدت قريحته فيها بالجهل اذ القوة
هى القدرة والفعل يحتاج الى علم وارادة وقدرة فالطبيعى لم ير
الا الفعل فنسبه للقوة . نقول صدقت ولكن القدرة التى
تكون اعمالها منتظمة يتقدمها علم قطعا فالعلم والقدرة والارادة
صفات لشيء مجهول لا للنبات . جَهِلها النباتي وعلمها اكابر

العلماء وسموها ملائكة . وهنا نفهم ما ورد فى الاحاديث
من ذكر الملائكة وانها تحفظ النبات والانسان والحيوان وكل
شيء فى العالم وبالجملة فالممالك الثلاث لها ملائكة قد وكلت
بالتغذية والحفظ وجميع الاعمال كالدورة الدموية فى الحيوان
(وسيأتى هذا باجلى بيان عند الكلام على الحيوان) وانتخاب
الاغذية فى النبات التي ترتب عليها بل ادهشنا ازهارها
واثمارها واوراقها المتنوعات الباهرات فما هذه الالوان
البديعة العجيبة ام كيف حصل الازدواج بينها وقد جعلت
ذكوراً واناثاً ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ ﴾ فبعض الازهار تكون اناثا فقط والبعض الآخر
ذكوراً فقط وذلك في القرع والخيار والبطيخ وما اشبه ذلك
وكالنخل والذرة . وقد يجتمع الذكر والانثى في زهرة واحدة
كالقطن والليمون والبرتقال والقمح فكل هذا يكون ذكره
مع انثاه فى زهرة واحدة وبعض النبات يخرج عقيما . فانظر
كيف كانت هذه الاقسام الاربعة فى النبات كما كانت

في الحيوان والانسان وكأن الآية تشير الى ذلك على طريق
القياس اذ الانسان نبات ترقى وفى النبات من الغرائب
والعجائب مالا يحصى . راجع كتابنا جواهر العلوم . ﴿ رَبَّنَا
مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ومن هنا
نفهم بعض معاني قوله تعالى ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ فانظر هذا
الميزان تجد ان كل نبات مسخر لما خلق له فترى ان عروقه
الضاربة فى الارض تأخذ ما يلائم وتترك مالا يلائم بمقادير
معينة وموازين محكمة حتى ظهرت اعاجيبها لا تتغير ولا تتبدل.
هذا ومن ظن بعد ما بيناه ان الطبيعة احضرت جميع الاشكال
والاوضاع ثم اختارت هذا الوضع المخصوص بالنبات الذى
لا يشاركه فيه غيره فهو جاهل لا يعقل . ومن هنا نفهم
اسناد التفضيل للخالق جل وعلا بنون العظمة فى قوله تعالى
﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ من أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا

على بعضٍ فى الأُكُلِ إنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ ﴾
كأنه يقول الماء واحد والارض واحدة والهواء واحد وكذا
الحرارة وهذه كلها لا حس لها فكيف يصدر عنها هذا
الترتيب العجيب وانما نحن بعظمتنا نفضل بعضها على بعض
فى الطعم والشكل واللون والرائحة وهذا برهان عقلى لقوم
يعقلون ،

توحيد وآداب وأخلاق

اعلم انه لما كان الماء حياة الحيوان والنبات كثر في الارض
حتى لم نحتج فى استخراجه الى عظيم مشقة وكثر الامتنان
به فى القرآن قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾
على احد التفسيرين وهو أعظم نافع في الحياة واهم اركانها وهو
الذى سكن في الارض الى الآن بلا زيادة ولا نقصان في ماهيته
الاصلية ومقداره كما يشير اليه قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) ﴾
والعلم يشبهه فهو يحيي العقول قال تعالى ﴿ (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ

السماء فيه ظلمات الخ) * اى مثل القرآن كمطر نازل من السماء
ويشبهه ايضاً في بقائه في الارض كما قال تعالى * (أَنْزَلَ مِنَ
السماء ماءً فسالت أَوْدِيَةٌ بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً
ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله
كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء
واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله
الامثال) * فالماء يعبر عنه بالعلم والقرآن والزبد ما يعارضه من
الوهم ولكن الحق يبقى كالماء ويزهق الباطل كالزبد الذي على
وجه الماء وكل شهوة من شهوات النفس فهى زائلة والعلم
هو الباقى فعليك به كما في هذه الآية وروى البخارى بسنده
عن ابى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (مثل مابعثني
الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير اصاب أرضاً
فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير
وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا
وسقوا وزرعوا واصاب منها طائفة اخرى انما هى قيعان لا

تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله
ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راساً
ولم يقبل هدى الله الذى ارسلت به) اه .

الكلام على السحاب والبحر الملح

انظر أيها المتفكر في انتقال الماء من جهة الى أخرى آخذاً طريقاً
فى الجو حتى ينزل في اماكن على حسب ما تقتضيه المصلحة
فانظر كيف اخرج ذلك الماء من البحر الملح بالتبخر وخلص
من شائبة الملح فعذب وحلا وارتفع الى الجو ثم انزله في المكان
المحتاج له مع مراعاة الوقت ومقدار الحاجة * (فاذا أصاب
به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن
ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله
كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ربك لمحيي الموتى وهو
على كل شيء قدير) * فانظر في تقدير هذا الماء بقدر الحاجة
لانه لو زاد عنها لاهلك الحرث والنسل ولو قل لعطشت
الاكباد وهلكت العباد قال تعالى * (وان من شيء الا

عندنا خزائنه وما ننزّله الاّ بقدرٍ معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم لهُ بخازنين)*

موافقة فطرة العامة لابحاث العلماء في السحاب

انظر كيف اظهر الله هذا السر المكنون على ألسنة العامة حيث يقولون ان ميكائيل يكيل المطر مع ظنهم ان صوت الرعد ناشيء من انصباب الماء وقت افراغه من المكيال وياسبحان الله ان حكم الله عز وجل كل يفهمها على حسب عقله ومقدار فهمه ومنتهى ادراكه فبينما نرى العامة يعبرون بما يشاهدون فى اسواقهم واحوالهم نري العلماء يقولون ان الامطار تنزل على الارض بحساب متقن فهو نظير الكيل عند العامة وان السحابتين لا تزالان تقتربان وكل منهما فيها قوة كهربائية احداها موجبة والاخرى سالبة ومعلوم فى الطبيعة ان الايجاب والسلب موجبان لاتحاد الجسمين ويحصل هناك صوت هائل وهو الرعد ومن هذا الاتحاد تنشأ حرارة وضوء وهو المعبر عنه بالبرق . وعلى ذكر البرق انشد هذين البيتين ترويحاً للنفوس

كأن وميض البرق رام تعلماً * لمعنى يزين الثغر اذ يتبسم
وخاف من النسيان صار يعيده * مراراً وهذا شأن من يتعلم

وهؤلاء هم علماء الطبيعة الذين قصر نظرهم على المحسوسات فهم اقرب الى العامة .

(تطبيق الآيات والاحاديث الواردة فى السحاب على ابحاث الطبيعيين)

فاذا ترقينا عن علماء الطبيعة الى علماء الآلهيات (التى هى ارقى من الطبيعيات والرياضيات) . وجدنا ان فوق كل ذى علم عليم وعرفنا تعبيراً غير ما تقدم وذلك ان السحاب فى جو السماء تحصل فيه افعال كثيرة متقنة كما قدمنا من جذب السحابات الكبيرة للصغيرة كما يشاهد نظيره فى حباب الماء اى (الفواقع التى تعلو على وجهه) وتضامها لبعضها واتحادها وذهابها الى الامكنة المحتاجة للمطر ونزولها قطرات متتالية لا دفعية وغير ذلك مما تخفى علينا حكمه الكثيرة فهذه افعال متقنة وكل فعل لا بد له من فاعل بداهة وجميع الافعال التى نشاهدها تنقسم الى ثلاثة اقسام الاول . مالا يظهر له انتظام بادى الرأي . وذلك كحركة الاشجار عند هبوب الرياح . الثانى ما فيه انتظام غير تام كافعال الانسان والحيوان فما كان لغرض صحيح عددناه منتظماً وما كان لغرض فاسد عددناه غير منتظم . الثالث . ماهو متقن اتقاناً تاماً كالافعال المشاهدة فى السحاب فهذا الفاعل الذي ينسب اليه هذا الفعل نسميه ملكاً نعرف فعله ونجهل كنهه . اذا عرفت هذا فهمت الاحاديث والآثار التى تمثل لنا افعال ذلك الملك على ضرب من التجوز والتمثيل الذي يذكره علماء البيان كقوله صلى الله عليه وسلم كما فى الكشاف (الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهى الى حيث أمر) والمخاريق جمع مخراق وهو في الاصل

ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً وهو المسمى عند العامة
(بالطرّة)

فانظر هذا التمثيل العجيب الذى يسميه علماء البيان استعارة
تمثيلية فمن سمع هذا الحديث ممن لا يعرف العلوم العربية
ولا اطلاع له على المعقولات يقول ما رأينا بنظاراتنا ثوباً
فى الجو يساق به السحاب وكيف يساق بثياب وما هو الملك
ومثل هذا المسكين اذا سمع قوله تعالى في حق آدم ﴿ فاذا
سوّيتُهُ ونفختُ فيهِ من رُوحي فقعوا لهُ ساجدينَ ﴾ يظن ان
النفخ بفم وهواء خارج من الرئتين وان التسوية كما يسوى
الانسان الشيء بيده . فان قال لا ان هذه امور على سبيل
المجاز قلنا وهذه مثلها مع ان القرآن والسنة ممتلئان بذلك وكل
هذا ناشىء من الجهل باللغة والبلاغة وبالجملة فالحديث يشير
الى ان هذه كلها آثار وافعال لعالم لا نراه يسمى (ملائكة)
وهذا امر واضح لذى العقل والبصيرة صعب على غيره
وهذا الكلام لم ارد به الا خطاب الخاصة لا العامة وقوله
(من نار) لعله اشارة الى الجاذبية بين السحابتين او الكهربائية

السارية في الاجسام او غير ذلك والنار التي تشبههما فى اللطف
والتحريك والسريان فى الاجسام بلطف خفى اقرب الى التعبير
عنهما بل الكهرباء تنقلب ناراً كما هو مشاهد اذ هى مصدر
النور والنار والحركات وكذلك يظهر البرق عند التفاعل .

الجام القاصرين عن البحث فى مشكلات الدين

ولعمرك ماقلت هذا كله الا مجاراة لهؤلاء العلماء والا فللدين
اسرار لا تقف على هذا الحد على ان البحث فى مثل هذه
ممن لا بصيرة له تضييع للزمان فمثل من يبحث في هذه
المشكلات كمثل سارق دخل بيتاً ولم يعلم به اهل المنزل ثم
دق الباب وكان للسارق فيه صديق فقال اخرج من الباب
الذى بجانبه حوض ماء فاسرع حتى وصل اليه فوجد الباب
ولم يجد الحوض فرجع الى الصديق وقال له اين الحوض فقال
له ألم تجد الباب قال بلى وجدته قال فانج بنفسك ولا تسأل
عن شيء فراجعه مراراً حتى أتى صاحب المنزل واخذ بمخنقه
الى الحاكم . فهكذا الباحث فى مثل هذه الاحاديث بلا بصيرة
وقد اعرض عن الكماليات فى الدين فيضيع العمر وينقضى

بلا عمل نافع ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول .

﴿ضرب مثل لحال علماء الطبيعة مع علماء الفلسفة العالية فى الآلهيات﴾

ان علماء الطبيعة نظروا الى الافعال المشاهدة ولم يصلوا بعد الى الفاعل لها فمثلهم مع علماء الآلهيات كمثل صبيان ورجال شاهدوا المحاريق (الالعاب النارية) والسواريخ التى تتقد ناراً وتضطرب وتدور فاما الصبيان فانهم يعجبون من نفس المشاهد باختلاف الوانه بالحمرة والخضرة وسرعة الحركات واختلافها وفرقعتها وسيرها يميناً وشمالاً صعوداً وهبوطاً واما الرجال العقلاء فان افكارهم تجول فيمن صنعوا هذه الحركة واوقدوا هذه النار ويعجبون من حزقهم ويعلمون انها

لم تنتظم هذا الانتظام الا باعمال رجال عالمين واقفين على اشكال ايقاد النار المختلفة (البارود) فكما شغف الصبيان بنظر صورة تلك الالعاب غير ملتفتين الى الرجال الذين نظموه كذلك علماء الطبيعة نظروا الى آثار الكهرباء وصوتها وضوئها ولم تذهب نفوسهم الى من نظمها وهو (العالم الخفي) وكما ان الرجال العقلاء تنصرف افكارهم الى ان هذه الاعمال ناشئة من رجال ذوى خبرة ودربة على اعمال المحاريق وتنظيمها كذلك علماء الفلسفة العالية عرفوا يقيناً ان هذه الاعمال اثر ملائكة موكلين بها وكما ان صانع المحاريق له اعوان على اعماله كذلك ملك السحاب له أعوان على تنظيم تلك الحركة الجوية . ثم هذه الاعمال كلها دالة على باهر قدرة الله عز وجل وحكمته فى ملكه وملكوته وجماله ورحمته فهى ناطقة بتسبيحه وتقديسه بل مامن ذرة الا وهى ناطقة بذلك فهى تسبح بلسان الحال كما ان الملائكة وجميع العقلاء يسبحون بلسان المقال اذا فهمت ذلك عرفت معني قوله عز وجل ﴿ ويسبح الرّعد بحمده ﴾ اى ملك السحاب كما فى الحديث او صوته *(والملائكة)* أعوانه (من خيفته) او ويسبح سامعو الرعد بحمده والملائكة كلهم من هيبته وجلاله فقد بان لك ان الناس ثلاثة اقسام فى التعبير عن تلك الظواهر . عامة . وطبيعيون . وعلماء آلهيون. ثم اعلم ان شأن العالم الذكى ان لا يقنع بما رأى من العلوم بل كلما تبحر عرف انها لا تدرك ومصداق هذا قوله تعالى . (وفوق كل ذي علم عليم) .

بيان ان الوقوف عند حد فى العلم وانكار ماوراءه جمود فى القريحة

فمن وقف على ظواهر الجو وظن انه ليس وراء ذلك فاعل فهو جاهل لا يدري ما يقول . وكم تبين خطأهم فى مسائل ثم هم لا يرجعون وشاهدنا على ذلك انهم كانوا يظنون ان بقايا النبات في الارض تتحلل بتفاعل كيماوى بواسطة الحرارة والشمس ثم اكتشفوا فى هذه الايام ان المحلل لها حيوانات صغيرة جداً (كما سيظهر لك بيانه قريبا عند الكلام على عجائب النبات الباطنة) ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ الا هُوَ وَمَا هِيَ الاَّ ذِكرَى للبَشر ﴾ ﴿ وَللهِ جنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حكيماً) ﴾ ولعلك تقول نحن فى زمن التمدين فأين الملائكة ونحن لم نرهم • اقول على رِسْلِكَ ان علماء الطبيعة الذين تقلدهم باوروبا قد انكروا مذهب الوقوف عل الحس واظهرهم الله على بعض عوالم الغيب وكذبوا هذا المذهب فمن تقلّد يامسكين وسنشبع الكلام على هذا عند الكلام على عجائب النبات الباطنة كما اسلفنا •

لطائف وبدائع في جميع انواع تصريف الماء

ان الله عز وجل جعل السحاب ينزل قطرات متفاصلة متتابعة في طرائق مخصوصة ولم ينزله دفعة واحدة والا لاهلك ماوقع عليه من نبات وغيره ﴿ وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ﴾ ثم جعل لكل من هذه اسبابا ربطها بها كالتبخر بالحرارة وسوقه في الجو بواسطة هبوب الرياح وهكذا وجعل ماء الانهار تصب ثانياً في البحار فما خرج منها رجع اليها فياسبحان الله كأن ماء البحر الملح وسيره في الهوآء بعد عذوبته وغربلته ووقوعه على الارض وتبخره ثانياً ككواكب السماء فى دورانها لكن سبب الكواكب واحد وهو الجذب العام واسباب هذا كثيرة كالتبخر الذى يميل به الى اعلى وسوق الرياح الذى يسيره الى الجهات والجذب الذى يسقطه على الارض ثم الجذب الشعري ليدور دورة ثانية فيخرج من الارض الى اعالى الاشجار ثم زفيرها وهكذا فسبحان من جعل للدوران والانتقال اسبابا كثيرة لتدل على قدرته وعظمته وعجائب صنعه وحكمته ومن الحكم العظيمة خلق ماء

الانهار من البحر الملح ولو انه نزل من جهة أخرى مع دوام انصباب الانهار فى البحر الملح من ابتداء خلق الدنيا الى الآن لعذب ماء البحر وانتن مافيه وفسد النظام كله بتغير الجو ومن العجيب ان الملح الذى فيه جعل حافظاً لما فيه من النتن والتغير كما جعل دمع العين مالحاً ليحفظها كذلك فانظر هذه المشابهة العجيبة .

﴿ السر فى قول العامة ان السحاب غربال وتفسير قول الاقدمين ﴾ ﴿ ان بين السماء والارض بحراً عظيما ﴾

تأمل فى ان الماء قبل ان يرتفع الى الجو يفصل الله عنه الملح ويجعله عذباً نشرب منه فاشبه القمح الذى يغربل اذ الغربلة فصل مالا لزوم له فلذلك نرى على ألسنة العامة انهم يقولون (السحاب غربال والمطر ينزل من عيونه) فلعل هذا هو السر الالهي في هذه الكلمة وهو فصل الملح منه ولا جرم ان السحاب هو عين البخار الصاعد من البحر الذي انفصل منه الملح غاية الامر انه تكاثف فى الطبقة الباردة فعلى هذا ظهر وجه تشبيهه بالغربال . وهنا نكتة اخرى وهو انا كثيراً ما نسمع في رموز الحكماء الاقدمين ان بين السماء والارض بحراً وجرى ذلك على ألسنة العامة وقد ظهر فى العلوم الطبيعية ان الهواء متشبع بالبخار

وكل هذه الانهار التى على وجه الارض والعيون النابعة منها انما منشؤها ذلك البخار فى الهواء فهو اعظم بحر بل هو سيد الانهار حيث تستمد منه فما اعجب العلم والذ الحكمة التى اقتضت ان نغدو ونروح فى بحر عظيم لا نراه فاما العالم منا باسرار الطبيعة وتصريف الماء فابتهج بعلمه واستدل به على كمال الابداع واما الجاهل فلما كان بعيداً عن تصوّر الحقيقة رمز له الحكماء بذلك الرمز تصويراً لعظمة خالقه وتقريباً لفهمه ومثل هذا كثير فى القرآن والاحاديث وكلام الحكماء

ثم ان الماء العذب بفرض مجيئه من جهة أخرى فانه مع تداول القرون والدهور يغرق اليابسة ويهلك العباد وبهذا مع ارتفاع اليابسة لم يبغ البحران فلم يعلو الملح حتى يختلط بالعذب ولم يغير العذب طعم الملح ومن هنا يفهم قوله عز وجل ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أى ارسل البحرين العذب والملح متجاورين متلاقيين بينهما برزخ اي حاجز من حكمة الله تعالى وهو هذه النواميس ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومعنى لا يبغيان لا يبغي احدهما على صاحبه وقال فى آية أخرى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)* شديد الملوحة
(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُوراً)

اقتطف ثمرات العلم

اليكم أيها الاخوان الذين تخرجوا من المدارس وتهذبوا باحاسن الاخلاق اوجه القول الجميل وادعوكم لاقتطاف ثمرات بساتين العلوم والمعارف . تأملوا معى في العشق العجيب بين ازواج عوالم الانسان . والحيوان . والنبات . والجماد . وما هذه المظاهر العجيبة

نرى العروسان عند ارادة الاقتران يقتربان بدواعى العشق الطبيعى ويزدانان بابهى زينة ويمتلئ الهوآء بالحان المغنين والآلات والانوار الشارحة للصدور وربما اطلقت المدافع (فى اقتران الاسرات الملوكية) فارتجت الارض وقد وسع الهواء اللطيف انواع الاصوات المختلفة مع كثرتها اذ الشئ كلما كان ألطف وارق كان أوسع لما يرد عليه فالهواء يتشكل بكل شكل والسمع يناسبه اذ هو الآلة المستعملة لفهم ما يرد منه فلذلك يعرف الاصوات المختلفة ويميز بينها من الرقيق والغليظ بخلاف الاغذية فانها لما كانت اغلظ منه كانت حاسة الذوق لا تعرف الا مذوقاً بعد مذوق ولا تدرك مذوقات كثيرة فى آن

واحد اذ هى مناسبة كل المناسبة لتلك المواد ويشير لذلك قوله عليه الصلاة والسلام (كل ميسر لما خلق له) هـذا ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول وكل ذلك اعلان واستبشار واقامة دلائل على ما يتقد في قلب العروسين من نار الشوق الطبيعى فتنتشر الحرارة فى اجسامهما كما تنتشر فى الجو باطلاق الآلات النارية . وهكذا نرى الزوجين من الحيوان عند ارادتهما (النزوان) يظهر صوتهما وتأخذ الحرارة تنتشر فى النفس والبدن . ثم اذا نظرنا للنبات رأينا امراً عجباً . رأينا ان الزهرة عند القاحها قد أخذت زخرفها وازّينت فاتت لها الحشرات سراعاً مثنى وفرادي كالنحل وغيره واجتنت من اسفلها رحيقاً مختوماً يستحيل فى بطنها عسلاً وقد علقت اذ ذاك جوانبها بالطلع فتأخذ من الذكر ما تلتقطه الانثى ولا علم للنحلة به فهذا فى الحقيقة نوع تزاوج يحصل به انتاج الثمرات من الزهر كما يولد الولد بين ابوين ونرى الحشرات وهى طائفة بتلك الازهار فى الرياض الغناء تشرب وتطرب وتفرح وتمرح فرحة بنعمة ربها شاكرة لآلائه ويا للعجب كأنها فى وسط تلك الرياض الباهرات مغنيات يزففن العروس الى بعلها على نحو ما يفعله الاناسى فانظر كيف كان ذلك الاجتماع تصحبه البهجة والزينة في كل مملكة من ممالك العوالم المشاهدة . ثم ارجع معى البصر كرة أخرى فى الجو والسحاب وتأمل فى عجائب التزاوج وكيف تشابه بما يفعله الانسان فترى السحابتين

تتجاذبان وتتعانقان كانهما العروسان وعبر عن ذلك الطبيعيون بقولهم
كهربائية تقتضى جذب احدهما للآخر ولا تزالان تقتربان وكلما اقتربتا
ازدادت سرعتهما كما يحصل من الزوجين عند قرب الزفاف من
التشوق وحب الاسراع للالتقاء فاذا التقتا اشتعلتا حرارة يتولد منها
برق وصوت شديد يسمى بالرعد على نحو ما يفعله الانسان من الضجة
عند تزاوجه وضرب المدافع وانوار الكهرباء واظهار الفرح وانتشار
الحرارة فى اجسام العروسين فياليت شعري ما هـذا التشابه العجيب
وما هذا النظام الغريب ولم كان هذا كله . ارى ان اليراعة قد أقرت
بالعجز عن تسطير ما يختلج فى نفسي من عجائب هذه المظاهر فكأن
تلك المظاهرة في افراحنا قد سرت فى الكون قبل خلقنا فما أشبه
العوالم ببعضها وانظر هذا التناسب وقابله بتناسب حركات الكواكب
واتجاهاتها وقوانينها فيما تقدم شرحه فهل ترى فى هذا العالم من
تفاوت الست تراه على غاية التناسب.

اقرأ ان شئت هذه الآية كرة أخرى ﴿ مَا تَرَى فِى خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ
ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ الَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾
ولا كرّرُ على سمعك ايضاً هاته الآية لتفهم منها معنى جديداً
﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وكأن

تلك الاصوات والمظاهر تستلفت أنظارنا الى ان كل نعمة
تصل لنا من الله لا بد ان تكون بين زوجين يتحدان وتتولد
بينهما تلك النعمة كاولاد الحيوان وثمار النبات ومطر السحاب
كما لا يتولد العلم الاّ بين اثنين والنتيجة الاّ بين مقدمتين وهكذا
جميع العوالم ويشير الى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم حين
تعرض للمطر لينزل على بدنه (انها حديثةُ عهدٍ بربها) قال
العلماء اى بخلقه لها.

حِكمُ الجبال والمعادن

انظر الى الجبال تجدها بمقدار مخصوص من حيث الحاجة
اليها اذ هى جعلت اوتاداً فى الارض ونسبتها لها كنسبة
عظام الانسان الى جسمه حيث جعلت على حسب الحاجة
اليها بلا زيادة ولا نقص وانظر كيف جعل المعادن تحتها والماء
فى باطنها فهي ترسله على حسب الحاجة ومن العجيب ان ماء
الثلج يكلل رؤس الجبال ويترشح فى باطنها شيئاً فشيئاً حتى اذا
اجتمع فى باطن تلك الصخور ضربته البرودة فصار ثلجاً

وكبر حجمه عما كان عليه (بخلاف جميع السوائل فانها اذا
بردت صغر حجمها ولكن هى الحكمة الآلهية التي بها اتزنت
الاشياء فى الازل وقدرت على احسن نظام) وعند ذلك
تتطاير الصخور وتنكسر الاحجار التي فوقه بسبب كبر حجمه
فتنفجر الانهار وتتشقق فيخرج منها الماء ﴿ وانَّ من الحجارةِ
لَمَا يَتَفَجَّرُ منْهُ الأَنْهار وانَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منْهُ المَاء ﴾
فانظر كيف فلق الماء الصخر بهذا الترتيب العجيب وكيف
ترتب على ذلك خروجه من باطن الجبل الذى جعل مخزناً
عموميا للانهار . ولم اختص الماء بازدياد الحجم وكبره اذا برد
مع ان جميع السوائل يصغر حجمها اذا بردت فتأملوا يا اولي
الابصار . ولعمرى ان عجائب الماء تدهش العقول وتحير
الافكار فبينما نراه اذا برد يكسر الصخور ويفتت الاحجار
ويقهر الجبال اذا هو يتبخر فيجر الآلات البخارية بقوة
وشدة فى البر والبحر للمسافرين واهل الصناعات فيحلج القطن
وينسجه ويحرث الارض ويسقيها ويحصد البُر ويدرسه ويذروه
في الهوا ويغربله ويطحنهُ ويخبزهُ فالماء كما اخرج نفسه من

باطن الجبال ببرودته وانتفاخه خرج من البحار بتبخره وبه
سقى الارض واجراء السفن فقام مقام الانعام في البر والسفن
فى البحر وتأمل كيف اهلك بسيولته فأمات من يقع فيه وحمل
الناس على ظهره فانجاهم من الغرق بتبخره وجذبه للسفن
البحرية على ظهره ﴿ انّ ربَّكُم لَرَؤفٌ رحيمٌ ﴾ ﴿ ولقدْ
كرّمنا بَني آدم وحَملْناهُمْ في البَرّ والبحْر ورزقْناهُمْ من
الطيّباتِ وفضّلناهُمْ على كثيرٍ مِمّنْ خلقنا تفضيلاً ﴾.
فسبحان الذى ادهش العقول وحيرها في عظمته ولقد انبهرت
عند كتابة هذا الموضوع من هذه الحكمة البالغة التى
خفيت عن البصائر مع وضوحها للابصار كالشمس فى رابعة
النهار وهذه لعمرى احق واولى بالتعجب من كل ما يستغرب به
الناس من افعال المشعوذين فأن هذا لمن له بصيرة اغرب
وابدع واعجب ولما كثرت عجائب المآء وتنوعاته الغريبة
وتشكلاته بالجمود والسيولة والتبخر وتصرفه على انحاء شتى
من التصريف بين الناس ونشأت عنه منافع مختلفات بها
انتظم النبات والحيوان والانسان وجعل طهوراً له ومزيلا

لكل قذر وراويا لكل صدًى وغير ذلك مما لايحصى مع
غفلة الناس عنه وعدم تفكرهم فيه وتدبرهم لعجائبه فكفر
اكثرهم اذ اكثر الناس لايعقلون وجهل جلهم اذ اكثر الناس
يجهلون فلذلك اعرض عنه الله تعالى بقوله * (وانزلنا من السماء
ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً واناسيَّ
كثيراً ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى اكثر الناس الا
كفوراً) * ولقد اشار فى آية اخرى الى ان هذه التصاريف سيريها
لاهل التبصر والتفكر بقوله * سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى
انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شئ
شهيد) * وكأن العلوم الحديثة التى ارتنا عجائب الانفس والآفاق
وهي تتجدد آناً فآناً هي التى وعد الله بها اهل البصائر والافكار
بهذا الوعد الحسن بعد سين التنفيس (سنريهم) وحقا
قد ظهرت العلوم والاكتشافات بعد مئات من زمن النبوة
فتلك المئات فى مقابلة (سين التنفيس) هذا ثم انظر كيف جعل
تصريف الماء بين الناس على هذه الاحوال المختلفة ليذكروا كما
قال فى آية اخرى * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي

وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل
عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات
وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد) *
فدل على ان هذه المخلوقات جعلت للنفع العقلى بقوله
تبصرة وذكرى وللجسمى بقوله رزقا للعباد فهذه العوالم للنفع
المادى والادبي والدنيوى والأخروي فتمد العقل والجسم
فمن قصرها على احدهما فقد كفر النعمة وباء بالوصمة حتى ندد الله
عز وجل عليه بقوله * فأبى اكثر الناس الا كفوراً * بعد
قوله * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا * ونحن نحتاج لشرح
معناها الى مجلد بل مجلدات وفيما ذكرنا عبرة لاولى الالباب
هذا واعلم ان كل جسم غازي كالهواء والاكسوجين
والادروجين اوسائل كالماء والعسل والزيت او جامد كالمعادن
يمكن ان يأخذ جميع هذه الاشكال فقد يصهر الحديد حتى
يصير سائلا ثم يتبخر وكذا الاكسوجين قد يبرد فيصير سائلا
كالماء ثم جامداً كالثلج وهذا كله معلوم فى فن الطبيعة الا

اشياء قليلة لم يمكن صهرها نحو الفحم ومن الغريب جعل
حرارة الجو على درجة بها تبقى المعادن جامدة والمياه سائلة
والاجسام الغازية طائرة ولو اشتدت حرارته جداً لذابت
المعادن وجرت بحور الحديد والنحاس والقصدير بدل بحار الماء
ثم انه لو برد برداً قارصاً لصار الماء ثلجاً كالجهات القطبية
وصار الهواء والعناصر التى فيه بخاراً على وجه الارض
وخلا الجو من الهواء فما اتقن هذه الحكمة التي اقتضت جعل
هذا الجو على هذا الحال حتى اعتدل الانسان وجميع ماخلق له
وجمد الذهب فجعله حلياً والفضة والنحاس والحديد والقصدير
وغيرها ثم ما كان منها نقوداً وحلياً وضع قليلاً لا نادراً ولا
كثيراً وهذا هو اللائق بالنقود لتعظم قيمتها ويخف حملها وبالحلى
ايضاً حيث يقتصر فيها على اللازم ليحصل التعاشق والتزاوج
بين النفوس وما كثر نفعه ولم يستغن عنه اكثر الله منه
كالحديد والنحاس وهكذا فكل شيء منها على حسب
المصلحة قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ ﴾ ومن تأمل ما ذكرنا فهم قوله تعالي ﴿ سَبِّحِ اسْمَ

رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ الآية
فما ذكرناه نزر يسير من معانى التقدير فى الآية .

آداب وأخلاق

تأمل فى حال الجو تجده اقرب الى التوسط ولذلك استقر كل
شيء فى وضعه النافع له وقد قدمنا ان المضاهاة تامة بين
الانسان والآفاق .

فكن على حالة وسطى تكن رجلا * بالجد متسما بالبشر مبتسما

وما احسن ما وصفت احدى نساء العرب به زوجها حيث
قالت . زوجي كليل تهامه لاحر ولا قر ولامخافة ولا سآمة.
انظره فى حديث ام زرع فى الشمائل للترمذى { وتهامه }
البلاد المنخفضة كمكة وما والاها وصفته بالاعتدال فى
الاخلاق فلايخاف منه شره ولايسأم منه للينه المفرط فقد
خلا عن الافراط والتفريط .

ولما انشد حسان بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم هذين البيتين

ولاخير فى حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولاخير في جهل اذا لم يكن له * حكيم اذا ما اورد الامر اصدرا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم *(لافُض فوك) وملخص
ما قاله علماء الاخلاق انه يجب وضع اللين في موضعه والشدة
فى موضعها اذا ادركت البصيرة التفرقة بينهما فان لم تدرك
وجب استعمال اللين فهو انجع . وليس للانسان اجمل من
قراءة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فهناك يظهر الاعتدال هذا
ولتكن كالجبال الراسيات علماً ووقاراً وادباً واعتباراً وكالهواء
لطفاً وذوقا ورقةً الم تر كيف ضرب الله الجبال مثلا للناس
لعلهم يتذكرون حيث جعلها مخزنا عمومياً للماء ينزله منها
بقدر معلوم وجعلها ثابتات *(أَلَمْ نجعَلْ الأَرْضَ مِهادًا والجبالَ
أَوْتَادًا)* فبها ثبّت الارض كالعظام فى جسم الانسان ولونها
بالالوان الجميلة المختلفة *(ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ
الوانُها وغرابيبُ سودٌ)* والجدد جمع جدة وهي الطرائق
اى الخطوط ذات الالوان البديعة التى تشاهد فى الجبال فكن
كالجبل في الصمت والوقار والهيبة كما قال عليه الصلاة والسلام
(اذا رأيتم الرجل صموتاً وقوراً فاقتربوا منه فانه يلقي الحكمة)
كما فى الاحياء فاذا فعلت ذلك صرت معدنا للعلوم كالجبل

جعل مخزنا للمياه ولا تقتصر على فن واحد بل خذ من كل
فن طرفا والبس من حلل العلوم الوانا كما تلون الجبل بالوانه
الجميلة المختلفة لتتجه الانظار اليه واعلم ان العلماء فى كل امة
هم اوتادها يحفظونها من الضياع والتمزق كما ان الجبال اوتاد
الارض فانظر هذه المناسبة والمضاهاة بين الانفس والآفاق
اذ بين النفوس تجاذب يسمى حبا وائتلافاً لا يحفظه الا العلماء
وبين اجزاء الارض تجاذب تحفظه الجبال ولا تزعزعك
الاهوال المختلفة فان الريح لا تؤثر على الجبل الشامخ وانما
تؤثر على الحشيش فتلعب به *(وان كان مكرُهم لتزول منهُ
الجبال)* اى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال التى هى مجاز عن
الصحابة او غيرهم .

(تذكرة وتبصرة)

لا تظن اننا نضرب هذه الامثال جزافاً وانما هي مقاصد
اكابر الحكماء والعقلاء والعلماء بل والانبياء والخالق جل وعلا
ولذلك قال تعالى *(إنّ اللهَ لاَ يَستَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما
بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فأَمَّا الَّذِينَ آمنُوا فَيَعْلَمُونَ انهُ الحقُّ من رَبِّهم

واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين ﴾ والعلم انما يحصل للانسان باحد أمور خمسة

اولا . التعبير بالفاظ عن المعاني بلا ضرب مثل نحو ﴿ الله نور السموات والأرض . واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور . ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلاً ﴾

ثانياً . ضرب الامثال وشرح حال النفوس الانسانية بنظائرها في الآفاق نحو ﴿ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ﴾ وكالامثال التى نضربها في هذا الكتاب .

ثالثاً . حكم على ألسنة الحيوانات كما فى كتاب (كليلة ودمنة) الذى وضعه الحكيم (بيدبا الفيلسوف) لملك الهند ونسج على منواله كثير من علمائنا كصاحب كتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) وغيره .

رابعاً . التواريخ والسير للمتقين والفجار والانبياء والملوك واصحاب الجنة واصحاب النار وهذا شأن القرآن ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ﴾ ﴿ وكلاً نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾

خامساً . النور الالهى الذي يستبصر به الانسان بلا واسطة ضرب مثل ولا كتاب وقراءة وغيرها وهذا هو اعلى التعاليم لانه اوسع ولا نهاية له اذ لا يتوقف على قيد الكتابة ولا سماع الالفاظ ولا النظر بالحواس ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد

أُوتِيَ خيراً كثيراً ﴾ ولاختصاص هذا بالكمل اردفه الله
تعالى بقوله ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ الا اولوا الألباب ﴾ ولذلك مدح
النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنه نبي أُميّ اذ غير الامي عندهُ نوع
قيد فالكتابة تقييد للمتعلم اذ تكون معلوماته على حسب
ما يطلع عليه في الكتب نعم الانبياء لهم نور على نور ولكنهم
اذا كتبوا فهم مقيدون اولاً مطلقون اخراً وهو صلى الله
عليه وسلم مطلق في التعليم اولا واخراً فعلومه اوسع وأمته
اكبر اذ هو أميّ . وانظر ما هذه المناسبة بين أمة وأميّ ثم
تأمل قوله تعالى ﴿ وَرَحمتي وَسِعَتْ كل شيءٍ فسأكتبها
للَّذِين يتَّقُونَ ويُؤْتونَ الزَّكاةَ والذين هم بآياتنا يُؤْمِنُونَ الذين
يتَّبِعُونَ الرسولَ النَّبِيَّ الأُمّي الذى يجدُونهُ مكتوباً عندَهُم
فى التوراة والانجيل يأمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُم عن المُنْكَر ﴾
الآية . وقد ورد اول من خط بالقلم ادريس وقال تعالى فيه
﴿ واذكُرْ في الكِتَابِ اِدْرِيسَ اِنهُ كَانَ صِدّيقاً نبياً وَرَفَعْنَاهُ
مكاناً عَلِيّاً ﴾ وورد انهُ في السماء الرابعة واما النبي صلى الله

عليه وسلم فانه أميّ وعُرِجَ به فوق السموات السبع فى مستوى
سمع فيه صرير الاقلام فهو فى مكان أعلى فادريس في مكان
على وهو فى اعلى والاول خط بالقلم وهو لم يخط به فتأمل
هذا الرمز العجيب وما أعجب الامية كيف كانت هى اول حال
الانسان اذ هى منسوبة الى الأُم فكأن الانسان على الحال التى
فارق بها أُمه ﴿ والله أخرجكمْ من بُطون أمّهاتِكمْ لا تَعْلَمون
شيئاً ﴾ فهى من جهة وصمة الجهل للانسان . ومن جهة
أخرى منتهى علاه فهى اوله ومنتهاه ولذلك كان هذا الدين
﴿ فطرَةَ اللهِ التى فطرَ الناس عليها ﴾ فهى أول الامر وآخره
ثم تأمل الكتابة كيف كانت قيداً للعلوم تحفظ بها وهى ايضاً
سبب للقيد عن غاياتها فكل من الكتابة والامية يذم ويمدح
فالامية أخذت غاية الذم والمدح والكتابة لها حظ منهما .

الكلام على النبات وعجائبه الظاهرة

انظر الى النبات تجد العجب العجاب في تكوينه فقد بُرئ
بميزان مستقيم تأمل صورته الظاهرة تجد الازهار البديعة
والثمار اليانعة والاوراق اللطيفة والاغصان الغضة الحسنة

القوام تمايل كالولهان وتعجب بحسنها كالنشوان قد تفرعت
من ساق تستقل بحملها وتقوى على اودها واتصلت بها العروق
الضاربة فى الارض لتجذب اليها المواد الصالحة لها منها مع قليل
الماء بمقادير تناسب شكل الشجرة وثمرتها ولونها *(فتبارك
الله أحسن الخالقين)* فقد ثبت ان الاجزاء التى يأخذها
النبات من الارض تكون على حسب نوع ذلك النبات كما
اوضحناه سابقاً فى الكلام على الماء وتصريفه فانظر كيف
اختلفت الاشكال والالوان والطعوم والروائح باختلاف
العناصر التي تأخذها تلك العروق والاوراق اذ الشجر يتغذى
باوراقه كما يتغذى بعروقه فله زفير وشهيق كما للانسان
والحيوان فياعجباً لهذا النظام البديع الذي حارت فيه نفوس
البرايا وكيف برأ الخالق من انواع معدودة من المواد الارضية
تلك الاشكال الكثيرة والطعوم والروائح مما لا يتناهي عدا
ولا يحصى وصفاً مع حسن النسق والترتيب والتناسب ألا
ترى الى الاوراق وقد احاطت بالثمر لتقيه الحوادث
والعوادى الجوية من الحر والقر وبينها فرج يتخللها الهوآء

ونور الشمس والقمر ليتم بها انضاج الثمر وتلوينه بتلك الالوان
المختلفة الجميلة فما اتقن هذا الوضع حيث جعل حاجباً للمضار عن
الاشجار غير مانع عنها ماينفعها من الهوآء واشعة الكواكب
الشرقة وما اشبه هذا الصنع باتقان العين فان اهدابها النابتة
على الجفن اسست متقاربة وفطرت ملتئمة فاذا احس الانسان
بشيء يتجه الى حدقته اسرع في الحال لاطباق الاجفان
فتداخلت الاهداب لتدفع الاذى عن الحدقة كالاتربة الدقيقة
مع ولوج الشمس من خلالها فقد حجبت الضار ودفعته
وادخلت النافع وهو الضوء لادراك الصور المرئية وانظر
كيف تشابهت الدقة في الوضعين (ما ترى فى خلق الرحمن
من تفاوت)* وبالجملة فاحوال الشجر والزرع الظاهرية وما
اشتملت عليه من رقة الصنعة لا نهاية لها فعجائبها لا تتناهى
ومحاسنها وحكمها لا آخر لها وهذه الظواهر قد اكثرت منها
فى كتاب جواهر العلوم اذ هو يبحث عن الظواهر وهذا
الكتاب يبحث عن البواطن

عجائب النبات الباطنة

اعلم ان ما ظهر عنوان ما بطن فاذا كان ظاهر الشجر والزرع فى غاية الجمال والبهاء والرونق والحسن والاحكام فما خفى عن الابصار وظهر لبصائر اولى النهى اجمل واحكم فان قوى النبات الباطنة هى منشأ تلك العجائب ومنبع تلك الغرائب فللنبات قوى تدبر ذلك التدبير العجيب خفيت عن الابصار وهى جند من جنود الله *(وما يعلم جنود ربك الا هو)* وذلك ان المواد المغذية للنبات في الارض والماء تتحرك الى ساق الشجرة وفروعها وازهارها وسائر اجزائها وذلك ليس بارادتها اذ لا ارادة للنبات قطعاً والا لكان حيواناً وهو باطل وليس ذلك لطبع تلك المواد التى يجتذبها لان طبيعتها التثقل والميل الى أسفل وهى انما ترتفع الى أعلى وهو ضد طبعها فلم يبق الا انها حركة قسرية كحركة الحجر الى اعلى فكما ان الحجر لا يتحرك الى اعلى الا بمحرك وقاسر يقسره وقاهر يقهره كذلك تلك الاغذية لا تعلو الى اجزاء النبات الا بقوة تقهرها على ذلك وتلك القوة يسمونها (الجاذبة [1]) ثم بعد صعودها فى النبات لا يزال طبعها وهو الثقل بواسطة الجذب العام يجذبها الى اسفل ولكن تراها باقية ازماناً طويلة فدل ذلك على وجود قوة اخرى طبعاً وقد سموها (الماسكة [2]) ثم ان الاغذية تتغير عن فطرتها الاولى وهى الطينية والمائية شيئاً فشيئاً حتى تماثل الطبيعة النباتية وليس يصنع ذلك النبات اذ لا صنع له ولا

ارادة وليس يصنعه الغذاء بالاولى فاذن الصانع له قوة أخرى تسمى ([3] الهاضمة) ثم ان الهضم يستلزم اخراج الفضلات التى لا ينتفع بها في التغذية واذا بقيت اضرت بالمغتذي طبعاً اذ لا تصلح له بل تضاده فهى كالباقى من الرماد بعد احراق الخشب او كالدخان المتطاير من النار او كالنوى الباقى من التمر بل كالفضلات الخارجة من الانسان بالتبرز فاخرجت هذه الاجزاء غير النافعة بواسطة الاوراق كزفير الانسان المخرج للفحم المحترق في أثناء التفاعل في الجسم وتوضيحه ان عملية الهضم فى النبات والحيوان لا تحصل الا بحرارة تحترق بها الاجزاء المجتمعة فى الاعضاء وهو احتراق حقيقى غاية الامر انه خفي فكما ان الخشب باحتراقه تبقى منه بعده مادة فحمية كذلك تلك الاغذية يبقى من احتراقها تلك المادة الفحمية (الكربون) فالممثل به احتراقه وفحمه ظاهران والممثل احتراقه وفحمه خفيان والحيوان والنبات فيه متشابهان . ثم تنظر الى مخرج تلك الاجزاء من النبات عند الاستغناء عنها اذ لا يكون ذلك الخروج بالارادة ولا بالطبع وانما اخرجته قوة سموها ([4] الدافعة) لانها تدفع الفضلات وتخرجها وهذه القوة تقوى فى النبات ليلا ولذلك كره الاطباء النوم تحت الاشجار المطبقة ووضع الرياحين في غرف النوم لتصاعد تلك المواد فيفسد الهواء ويضر بالنائمين . ثم ان الغذاء متى اشبه المغتذي يلتصق به ويدخل في تركيبه وهو فعل قوة اخري تسمى ([1] الغاذية) فالجاذبة . والماسكة . والهاضمة . والدافعة . خادمات لها يهيئن الغذا وتدخله هى فى تركيب الجسم فتلصقه به . فاذا تم فعل

الغاذية والتصقت اجزاء الغذاء بالجسم اخذ يمتد طولاً وعرضاً وعمقاً على نسب هندسية بتقدير عجيب فاقل جزء ولو مثقال ذرة من الغذاء يمتد به كل غصن وورقة وزهرة وثمرة وعروق ارضية وساق على نسب محدودة واوزان مخصوصة وحساب متقن على حسب الاشكال من مستدير وبيضاوي واسطواني ومثلث ومربع وهرمي ومستقيم ومنحن ومنكسر ومن هنا نفهم قوله تعالى *(وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)* وقوله ايضاً *(وانبتنا فيها من كل شيء موزون)* ولا غرابة في ذلك فهو ميزان اسرع الحاسبين وهذه القوة تسمى (٦ النامية) ثم لا بد لكل عضو من صورة خاصة به والفاعل لذلك هي القوة(٧ المصورة) وهذه القوى الثلاث اعني الغاذية والنامية . والمصورة . انما هي لبقاء الشخص الى الوقت الذي اراده الله عز وجل ومعلوم انه مركب من عناصر دائمة التفاعل والتغير مستعدة للانفصال والتفرق على انها دائماً في تحليل وتركيب حتى قال حكماء عصرنا الحاضر ان الجسم يتغير كل بضع سنين مرة بل قيل في كل شهر مرة فتتغير العضلات والرباطات والاوتار والعروق والاورده والشرايين والحدقة والانف والاذن والمخ وهكذا فتذهب الاجزاء التي تركبت منها هذه الاعضاء وتخلفها اجزاء اخر من الاغذية والهواء فسبحان الذي جعل البقاء الحق خاصاً به بل جعل الانسان مثالاً تعتبر به معرفة الخالق فكما ان الشخص الواحد تتغير عليه

اطوار وصور مختلفة من الصغر والكبر والتحليل والتركيب وهو لم يزل واحداً فكذلك مدبر هذا الكون مهما تكاثرت انواع مخلوقاته بتعدد تجلياته واختلاف صور المبدعات فالفاعل في الحقيقة واحد بل المعنى واحد . وهذا داخل في الحكمة المشهورة (خلق الله ادم على صورته) ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول

لما منح الله الانسان بقاء محدوداً لم يجعله له خالصاً بل جعل التغير له لازماً في كل حين ثم انه لو ترك سبحانه تلك الاجسام التي خلقها ولم يجعل فيها مبدأ لانفصال مثلها لخلا وجه الارض في اقرب زمان فجعل فيه قوة اخرى سموها (٨ المولده) تأخذ من الجسم الذي هي فيه خلاصة وتجعلها مبدأ لمثله من نوعه فتنشأ حبوب النبات وبيض الحيوان مثلا وغير ذلك .

﴿ ايضاح الكلام على هذه القوة وهي المولده ﴾

اعلم ان هذه القوة سارية في جميع انواع الحيوان والنبات فترى في كل نوع منها ذكرا وانثى ولا تلد الانثى ما لم يلقحها الذكر وهذا ظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار لعلماء النبات في العصر الحاضر حتى انهم اكتشفوا ان سنبلة القمح يلقح ذكرها انثاها في داخل الغلاف قبل بروزها الى ظاهر العيان

فى كل نبات منه ذكر وانثى متجاوران متحابان اما الذرة
فذكرها هو الذى فى أعلى العود وانثاها هي نفس السنبلة
التي فيها الحب فيقع اللقح من الذكر على الانثى كما قدمنا وقد
اطنبنا فى ظواهر العجائب المذكورة فى كتابنا جواهر
العلوم ايضاً فسبحان الذي انفرد بالكمال وبنى عالمنا هذا على
النقص والاختلال فالكامل فى الوجود واحد وما سواه
فى غاية النقص ولذلك يلتجئون لجنابه ويفرّون لوجهته
ويبتهلون اليه . تدبر معنى قوله تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ
شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾
وقد تقدم هذا فظهر لك ان القوى الرئيسة اربعة الغاذية .
والنامية . والمصورة . والمولدة . وهذه كلها تعبيرات
الحكماء القدماء ويظهر من كلامهم انها غير عاقلة وياسبحان
الله ابعد هذه الاعاجيب والانتظامات يظن عاقل ان ذلك
الفعل بلا عقل . كيف والاستكشافات الحديثة ترينا كل يوم
آية جديدة فى الآفاق وفى انفسنا حتى تبين لنا الحق وعلمنا
ان الله على كل شيء قدير .

— استشهاد واستطراد —

وحسبنا شاهداً على ذلك ان الاعضاء الاثرية وبقايا النباتات الارضية
كنا نظن انها تحلل بنفسها لا بغيرها ولم يدر فى خلد انسان من
العلماء او العامة انه يحللها شيء غير الشمس والحرارة والتفاعل
الكيماوى ثم ظهر ان الذى يحللها حيوانات صغيرة ملأت السهل
والجبل والطرق واراضى الزراعة والاحجار والمنازل تحلل التراب
وتعلو على وجه الارض حتى انهم عرفوا ان قدر مثقال من تراب
يحتوى على ملايين منها وكلها تجد وتجتهد فى تحليل تلك المواد لتصلح
لتغذية النبات فلولاها لما بقينا على وجه الارض لحظة واحدة نحن
ولا حيواناتنا ولا نباتنا فاعتبروا يا أولى الالباب . وهذه الحيوانات بعينها
هى التى تدخل الاجسام فتدخل فيها الامراض القتالة والطاعون
وغيرها فما المانع من ان تكون هذه كلها آلات تحت تصرف عالم
لا نراه فان كان فعلها خيراً سمينا ذلك العالم ملائكة وان كان شراً
سميناه جناً بل ورد ما يشير الى ان هذه الحيوانات نفسها هى الجن
وان لم يكن معروفاً قبل ذلك الاكتشاف . وهذا نص مارواه صاحب
الاحياء فى الجزء الثالث عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال . قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلق الله الجن ثلاثة أصناف . صنف
حيات وعقارب وخشاش الارض . وصنف كالريح فى الهواء . وصنف
عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الانس ثلاثة أصناف .

صنف كالبهائم كما قال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل وصنف اجسامهم اجسام بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين . وصنف فى ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله) اه .

فهذا الحديث وان طعن فى سنده صاحب حياة الحيوان الكبرى قد اظهرنا على كنز علوم واسرار فان الصنف الثانى من الجن الذى هو كالريح فى الهواء يظهر انه هو تلك الحيوانات (الميكروسكوبية) فانها هى التى تشبه الهواء واذا كان صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام سماها جناً ونحن نعلم انها هى التى تفتك بالانسان فى الطاعون وغيره من الامراض فلم لا نعتبرها كذلك نحن . ومن العجيب ان الفقهاء ذكروا ان الجن يكونون فى الاماكن الخربة والبرك المستنقعات والمحال القذرة وهذه الاماكن بعينها منشأ الحيوانات المذكورة عند علماء الميكروب . وان صح ما فهمناه فى هذا الحديث نفهم احاديث كثيرة لم يزل الايمان بها الى الآن ايماناً بالغيب كالتى وردت فى ان الطاعون من وخز الجن فقد ظهر واتضح ان الوخز حاصل بلا نزاع والاحاديث الواردة فى الملائكة الموكلة بالنبات والحيوان كثيرة فعلى ذلك تلك الحيوانات التى تحلل البقايا النباتية وتحلل التراب هى تحت امر الملائكة لانه فعل خيرى ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول . واذا ثبت هذا في ذلك التحليل الذى لا يحتاج في بادىء النظر الى مثل تلك الحيوانات التى لا تتناهى

وانها هى الفاعلة فيه فلتكن تلك القوى المذكورة آثار افعال ملائكة *(لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون)* ولذلك ترى النظام الذى صدر منهم على غاية الاحكام وحسن النسق . وقد قدمنا ان حركات نحو الهواء ليس لها حظ من الانتظام فى بادىء النظر وان افعال الحيوان والانسان مترددة بين الامرين اما الافعال التي نراها منتظمة فننسبها الى صنف من المخلوقات ارقى وهم الملائكة فافعال الملائكة منتظمة كما ترى في دورة الدم واعمال الهضم والتغذية وغير ذلك . وتأمل ما نقلناه عن الاحياء فيما سبق من ان محيل هذه الامور على الطبع لا يدرى ما يقول فارجع اليه ان شئت .

اما الآدميون فمجموع افعالهم غلب خيرها على شرها بقواهم العاقلة ولذلك صحت خلافتهم فى الارض قال تعالى *(هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم)* والقائم بنظام العالم هم الملائكة نخاطبهم بقوله *(واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة)* وهو آدم *(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها)* بالمعاصى والقوة الشهوية *(ويسفك الدماء)* بقوته الغضبية *(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)* فهم

مطيعون لايعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون بدليل
مانشاهد من نظام النبات والحيوان والانسان وكل منتظم لم
يدخل تحت اختيارنا ﴿قال انى اعلم مالا تعلمون﴾ وهو ان
قوته فى العلم والمعرفة نفعها غاب على هذين الضررين ﴿وعلّم
آدم الاسماء كلّها﴾ وفطر النوع الانسانى على اللغات والعلوم
حتى سمى كل شئ باسمه ولذلك ورد فى الحديث (حتى علمه
القصعة والقصيعة) ﴿ثمّ عرضهم على الملائكة فقال
أنبئونى باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فعجزوا ﴿قالوا
سبحانك لا علم لنا الا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾
﴿قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلمّا انبأهم باسمائهم﴾ اى اسماء
الاشياء كلها ورأوا ان العلوم جميعها واللغات ومعرفة حقائق
الاشياء وحكمها مركوزة عنده وان كلا منهم ليس له الا مقام
معلوم من الحقائق حيث يتلقى الاوامر الآلهيه ويفعل فعلا
خاصا بنوع من انواع النظامات الكونية فى العلويات والسفليات
والمواليد الثلاثة كما نقلناه عن الغزالى فيما تقدم . «قال» تعالى
﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والارض﴾ واذا

كان آدم من خلق وجعلته مفطوراً منطويا على ذلك كما يظهر فى
الانبياء وغيرهم فكيف بمن فطرهم . واعلم انه قبل خلق الانسان
لم يكن في الوجود ارقى من الملائكة فكانوا يظنون ان لا يخلق
الله خلقاً اكرم عليه منهم واخفوا ذلك كما اظهروا سؤالهم وهو
قولهم اتجعل فيها من يفسد فيها الآية . فلذلك قال تعالى مشيراً
لذلك ﴿وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ ومن تأمل
في مساق هذه القصة وكان له المام بعلوم العقليات واستحضر
بصيرته رأى فى هذه الآيات رموزاً احاطت بقوى الانسان
الظاهرة والباطنة وأحواله العالية والسافلة وذلك انه له قوة الشهوة
والغضب وقد اشترك بهما مع الحيوانات واختص بقوتيه العلمية
والعملية وقد ذكر في هذه الآية الثلاثة الاول مشيراً الى الشهوة
بالفساد فى الارض والى الغضب بسفك الدماء والى العلم بتعليمه
الاسماء كلها . اما القوة العملية فلا بد لها من استعداد وخضوع وتسخير
فى الكائنات كالحيوانات والنباتات والانسان التى كلفت
الملائكة بحفظها (تأمل ماقلنا فيما سبق وما يأتى فى هذا الكتاب
ليتضح لك المقام) ولا جرم ان ذلك من لازم سجودهم لآدم

ولهذه النكتة العجيبة والحكمة الغريبة اعقبه بقوله تعالى
(واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) ومن انقاد
لاحد وخضع له خضوعا حقيقيا ظهر ذلك فى افعاله فيسلم له كل
مالديه عن طيب نفسه يختار منه مايشاء ولا شك ان هذا العالم
علويه وسفليه مسخر للانسان وهو من افعال الملائكة .
بتسخير الله تعالى فقد سجد الملائكة لآدم ولكل سجود آثار
الا ترى ان سجود الانسان باخلاص يؤثر فى اعضائه وحركاته
واحواله الظاهرة اذ الظاهر عنوان الباطن *{ سيماهم فى
وجوههم من اثر السُّجود }* ولعل من آثار سجود الملائكة
لآدم تسخير العوالم له ولبنيه *(وسخر لكم ما فى السموات
وما فى الارض جميعاً منه)*

هل تسلط الانسان على مادونه عدل ؟

ولما استوى آدم على عرش الخلافة هو وبنوه ونظروا
العوالم كلها مسخرة لهم خاضعة تحت قهرهم مطيعة لاوامرهم
أمكنهم استخراج المعادن والانتفاع بها وقطع الجبال بالمعاول
ليهدوا السبيل وقد ينحتون منها بيوتا ويتخذون منها أحجارا

لبناء المساكن وتسلطوا على النبات باخذ ورقه وقطع أغصانه
واقتطاف أزهاره وجنى ثماره وذللوا الحيوان وقهروه بمد
الشباك في البحار واصطياد أسماكها واقتناص الطير من الهواء
وأخذ أفراخه وذبح الحيوان قبل أن يبلغ غايته وأكل لحمه
وشرب ألبانه والتدثر بجلوده واتخاذ أصوافه وأوباره وشعوره
أثاثا ومتاعا الى حين ورصدوا الكواكب وعرفوا مصادرها
ومواردها ولا جرم ان ذلك كله نظام الهى مسخر تحت سلطان
الملائكة (كل ما سماه الطبيعى قوة أو نحوها . يسميه الشرع
ملكا كما فى رسائل ابن سينا ويؤخذ من احياء الغزالى) فاصبح
تحت قهر الانسان الذى هو خليفة على تلك العوالم وحينئذ
وقف ذلك الانسان وقفة المندهش المتحير وقال ليت شعرى
أأنتفع بهذه الاشياء وهذا لا جرم جناية ام اتركها فيكون
وجودها عبثا وأكون مخالفاً لنظام المبدع الحكيم ومعارضاً
لحكمته فان انا انتفعت بها وقفتْ عن وصولها الى غاياتها فاذا
ذبحت صغار الحيوان او قطعت أغصان الاشجار او اقتطفت
زهر الرياض فقد جنيت عليها جناية عظيمة اذ هي مستعدة

للوصول الى غاياتها . وان تركتها بدون انتفاع بها كان وجودها
عبثاً وباطلاً وما الحكمة اذاً فى خلقها ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموَات
وَالارْضَ وما بينهما بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِلَّذِين كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ فهذه الموجودات لم تخلق الا لحكمة
بالغة ولا بد ان تكون حكمتها انتفاعنا بها . ثم ظهر له الحق
فقال لاشك ان الحكمة تقتضي الاخذ باخف الضررين كما
قيل (اذا اجتمعت علتان يتبع الاخف) فالوقوف عن الغايات
اخف من العبث فانا اذاً انتفع بهذه العوالم ومن الحكمة ان
كل ناقص فداء للكامل فالنبات فداء الحيوان وهو غذاؤه
وهما غذاء الانسان وفداؤه فالحيوان والنبات وان وقفا عن
غايتهما فقد جعلا لكمال الانسان وتقوية بنيته . ثم تأمل في
هذا الكون ومراتبه تفهم هذه الحكمة وهى .

— ﴿ الكون كله خير محض والشر عرضى ﴾ —

ولا يخفى ان بعض المخلوقات ربما اوجب للانسان خسراناً
مبيناً بمقتضى الحكمة الآلهية من وضع الخير بالاصالة والشر
بالعرض اذ لايترك الخير الكثير الاصلى لشر قليل بعرض

كعموم النار والماء فى العالم وقيام الحياة بهما مع احراق ثوب
ناسك واغراق رجل صالح وكنفع الكهرباء والبخار فى نقل
الناس وامتعتهم وأخبارهم مع مايعرض من قتل نفوس
وضياع مال بسببهما فالحكمة الالهية تامة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ
رَبِّكَ فلله الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ فما العالم كله الا الخير وما الشر
الا عرضى قليل ومن الخرق والجهل ترك خير كثير لشر
قليل . وكوضع الشهوة والغضب في الانسان الموجبتين لبقاء
حياته مع انه بهما يكون عرضة لكثير من الشرور والقبائح
التى تنسب الى من خرج عن صف الملائكة فى أفعاله ولم
يسجد لآدم وكانت جميع افعاله ضد الكمال فحيث لم يسجد
ولم يخضع كانت كل اعماله مضادة للكمالات الانسانية . فانظر
كيف اخرجه من صف الملائكة حيث اعقبه بقوله ﴿ الا
ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ فتأمل ترتيب
هذه الآيات واعرضها على الادلة العقلية المندرجة في تفسيرها
مما رأيت تقف على بعض عجائب القرآن ثم اعقب ذلك بذكر
خلق آدم فى الجنة التي هى من طبعه الاصلى وهبوطه منها

باتباع الشهوات ووسوسة الشيطان له ثم توبة الله عليه فما اعجب
هذا الترتيب والمساق الغريب فان هذه الآيات جمعت مبدأ
الانسان ومعاده وطبائعه المتضادة بوجه عقلي عجيب وترتيب
طبيعي وقد انطوت تحتها علوم كثيرة ومتى فهمت هذا
الكتاب فهمت كثيراً منها . اه

﴿ سعة قدرة الله تعالى فى تنوع طرق تعاليم العلوم ﴾

تأمل علوم الاوائل والاواخر تجد عجباً عجابا فبينما نرى
الاقدمين يصفون سرائرهم بالاخلاص والصدق وحسن النية
ومكارم الاخلاق وترك الخداع والغش والمكر والنفاق والحقد
والغضب والغيبة والنميمة حتى تظهر لهم حقائق الاشياء على ماهي
عليه فى نفس الامر كما هو متواتر عن علماء الاخلاق والفلاسفة
والحكماء والصوفية اذ نرى علماء هذا العصر يعرفون حقائق
الاشياء بمرائيهم المعظمة للاشياء والمقربة للمسافات حتى انهم
قربوا بها منظر القمر على بعد امتار معلومة ليشاهدوا صنع الله
فيه واكتشفوا بها خفايا النبات والحيوان والانسان بل عندهم
آلات تظهر باطن الانسان كالكبد والطحال والمعدة والكليتين

والقلب وجميع الاعضاء الداخلة فتشاهد مشاهدة تامة للاطباء
ليصفوا لها العلاج بكل سهولة وهذه الآلات تشتمل على
الاشعة المسماة اشعة (رينتجن) التى تشبه ضوء حشرة الحباحب
المسماة (حشرة الله) حتى انهم جمعوا (١٣٠٠) منها فوجدوا
اشعتها اخترقت لوحا سميكا من النحاس .

فانت ترى انه قد قام صفاء المرآة البلورية التي صنعها
الانسان من الرمل والرصاص والبوتسا مقام صفاء القلوب
المستعدة لمشاهدة الغيوب . ولكن بينهما بَوْنٌ بعيد اذ هى انما
تكشف بعض حقائق الماديات وتلك فى العقليات وكأن الله
عز وجل أراد برحمته العامة في الخليقة انه لا يحجب أحداً من
خلقه عن كرمه وفضله فلما عجز الاواخر عن تصفية البواطن
أعطاهم هذه المرآة وافهمهم اياها بل وصلوا الى ما هو ارقى
من ذلك بالكشف الجزئي حيث أمكنهم ان يشغلوا الروح
عن الحواس ويصرفوها الى عالم المجردات حتى تنطبع فيها
المعلومات فتخبر بالغيب وقتاما . ثم ترجع الى عالم الحس بزوال
ما صرفها عنه وذلك (بالتنويم المغناطيسى) فاتضح لنا بهذا ان

الروح بين عالمين عالم المجردات وعالم المحسوسات ولولا خوف
التطويل لشرحته شرحا وافياً وسيأتي قريباً في هذا الباب ماظهر
من الاستكشافات في تحضير الارواح فانظر اتساع قدرة الله
تعالى فان الله واسع عليم يؤتى الحكمة من يشاء على حسب
قوته وهؤلاء حظهم انما يكون فى ظاهر الصور والاجسام
فلذلك تقدموا فيها تقدما عجيباً صنع الله الذى اتقن كل شئ
ونحن لو أرخينا العنان للقلم واسترسلنا في ذكر عموم رحمته
لخلقه كعموم النور لكل ناظر والحرارة لكل ما على الارض
ووجود الماء في كل مكان فوق الارض وفى باطنها وفي الهواء
والسحاب وكون النار فى الاحجار والاشجار والكهرباء
وهكذا لم تسعه الاوراق ولملأ مجلدات ضخمة . ثم لنرجع الى
مانحن بصدده فنقول .

ثم قول الحكماء عن فاعل تلك الافعال انها قوى كلام
مُعمّى مُغْلق غير متضح المعنى دال على وقوفهم وعجزهم عن
ادراك الحقيقة على ما هى عليه اذ للعقل قوة يقف عندها
﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولعلك تقول ماالمانع من ان تكون

تلك الافعال لملك واحد اذ لا لزوم للتعدد مع ان الانسان منا
يمكنه ان يقوم باعمال كثيرة فيبذر القمح ويحرث الارض
ويحصد ويدرس ويذروه في الهواء وهكذا فهلا كان الملك يفعل
تلك الافعال فى المواليد الثلاثة ويكون واحدا . أقول اعلم ان
الملائكة ليسوا مثلنا فما منهم الا له مقام معلوم كما ذكره صاحب
الاحياء وفصله فى كتاب الشكر بكلام طويل ولذلك
لايتصور منهم المعصية بالكلية اذاستعدادهم لامر واحد لاغير
فنتج من هذا كله ان القوى التي ذكروها ملائكة وان هذا
النظام العجيب نتيجة أفعالهم وان كل فعل يفعله ملك وقد يشير
لذلك قول العلماء فمنهم الراكع ابداً والساجد ابداً والقائم ابدا
والقول الجامع لذلك قوله تعالى على لسان الملائكة ﴿ وَمَا مِنَّا
الاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ ولقد رأيت فى بعض الكتب نقلا
عن طبيب مصري ان للجسم ملكا حافظا له تصدر عنه أفعال
غريبة حتى ان الانسان اذا رأى ذبابة نفرت منها نفسه بدون
اختياره واذا قربت ابرة من عينه انطبقت العين بغير استشارة
عقله لان ذلك الملك يقبض النفس عن كل مايضرها كالذباب

مثلا اذ فيه مادة سمية كما في الحديث (اذا وقع الذباب في أناء احدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في احد جناحيه داء وفي الآخر شفاء) اه . ولقد عرف ذلك بالاستكشافات الحديثة فياليت شعري هل عرف العقل ذلك السم حتى امر النفس فاشمأزت منه ونفرت نفوراً عظيما وحيث ان العقل لا يعرف فالعارف بذلك هو الملك الحافظ للجسم وبالجملة فهذا الملك ينفر عن كل مايضر الجسم وكل ما تنفر منه نفسك فان فيه سما علمه ذلك الملك قال تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) اه

لطائف ورقائق

ولعل قائلا يقول ما هذا الكلام ان التمدين الحديث والعلوم الجديدة تنكر ما وراء الحس ونحن في زمن تنور الافكار . أقول على رسلك فقد أضاء الصبح لذي عينين وظهرت عوالم الغيب للناس رأى العين فان لم تصدق الصوفية الصادقين فيما القوه عما شاهدوه افلا تصدق اكبر الماديين في

هذه الايام الذين تركوا مذهبهم ورجعوا الى التصديق بجميع عوالم الغيب . الم تقرأ مجلة (الحياة) التي نقلت الغرائب والعجائب مما لم يخطر على البال عن الغربيين فقد ورد في أحد اعدادها ان أهل أوروبا قد استحضروا ارواحا (هكذا يزعمون) تخبرهم بما يريدونه على كيفيات شتى وهاك نص عباراتها نمرة ١٤٦ .

ففي ابسط الاستحضارات تلبس الروح على زعمهم جسم المائدة فتطرق طرقات يصطلحون على عددها بقصد التفاهم مثال ذلك يقولون للروح (بعد ان تعلن حضورها بطرقة) سنسألك عن اشياء فاشيري (لنعم) بطرقة و(للا) بطرقتين وفي حالة أخرى يتحدون مع الروح على طرق المائدة عند الحرف الذي تريده ثم يأخذ احدهم في قراءة أحرف الهجاء فتطرق الروح عند كل حرف تريده طرقة الى ان يتم الجواب فيركبون من هذه الاحرف المقطعة جملا مرتبة معقولة بل منها ما هو أرقى في درجات الفلسفة . وفي أحوال أرقى من هذه يضعون القلم الرصاص والورقة على المائدة فيكتب القلم بنفسه بدون ان يلمسه أحد . ويترقى الامر عن ذلك ايضا فيرى المستحضر

بعينى رأسه صورة الميت ويصفها للحضور على غير علم منه
بالميت ولا بأهله . وقد تسمح الروح للحاضرين باخذ صورتها
بالفوتوغرافيا فتظهر كانها صورة صاحبها وهو حي بلا فرق
اصلاً . والغريب فى هذه المسئلة هو ان الزجاجة الحساسة
تتأثر بصورة الميت فترسمه ولا تتأثر بها شبكية العين مطلقاً
وفي حالة أرقى من كل ما مر تظهر الروح متجسمة للحضور
فيكلمونها وتكلمهم ويسألونها وتسألهم ويلمسونها وتلمسهم
وتفعل امامهم من العجائب والغرائب ما لا يخطر على قلب انسان
هذا كله مثبوت من مشاهدات علماء الطبيعة انفسهم الذين
كانوا أشد الناس طعناً على هذه المسائل ومروجيها ولم يسعهم
فى مبدإ الامر الى فحصها والتدقيق فيها الا ليقيموا للعامة برهاناً
محسوساً على بطلانها وفضح حيل المدلسين على عقولهم .
ولكنهم لم يكادوا يخطون فى تجاربها خطوة حتى استهوتهم
وجعلتهم اشد تعصباً لها من العامة انفسهم . اه

واقول لا يشفى صدرك ايها القاريء الآن تتصفح تلك المجلة
(الحياة) فانا اوصيك بقراءتها فهي اكبر من ان تشترى

بوزنها ذهباً بل (جواهر) الا فليحضر الفخر الرازى ولينظر
العلوم اليوم وليدع حيرته فى كيفية (تسخير الجن لسليمان)
عليه الصلاة والسلام وابحاثه المشككة فيها عند قوله تعالى
﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فى الاصْفَادِ ﴾
ولعمرى من لم يفقه بعد هذا ولم يذق حلاوة العلم صدق
عليه قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ
الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ اي جماعات اوعياناً
كما فى الكشاف ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ فما يدريك ان هذه الخوارق وهذه النعم
من المشار اليه فى القرآن بهذه الآية . فقد ظهر فيما رأيت عن
(الحياة) انهم كلموا عالم المجردات (سواء كانوا هم الجن ام
غيرهم) كما انه جمع للناس في هذه الايام كل شئ من مصادر
الحياة والثروة كالكهرباء والبخار والمغناطيس وابرز لهم معادن
الذهب والفضة والالماس وغيرها واخرجت الارض ما اكنته
وحفظته من احقاب طويلة من الفحم الحجري فقد جمع الله
للناس كل شيء ثم افاد انهم لا يؤمنون الا ان يشاء الله واردفه

بقوله ﴿ ولكن اكثرهم يجهلون ﴾ والعبرة بعموم اللفظ
لا بخصوص السبب وعندي انه قد حان الوقت الذى يظهر فيه
مكنون عجائب الكتاب والسنة مما لم يقف عليه الاوائل
﴿ انا نحنُ نزّلنا الذكرَ وَانا لهُ لحافظونَ ﴾ ﴿ لاتحرّكْ بهِ
لسانكَ لتعجلَ بهِ انَّ علينا جمعَهُ وقرْآنه فاذاقرأناهُ فاتّبعْ قرآنهُ ثم
انّ علينا بيانهُ ﴾ ولا تظن ان هذه الخوارق الاروبية لم يسبقهم
بها احد بل اقرأ كتب الصوفية لا (المتصوفة) كالفتوحات
لابن العربى تر ان القوم قد وصلوا الى غاية لا تدرك . واعلم
ان النوع البشرى عنده استعداد لمعرفة الغيب وهو عام وخاص
فالعام هى (الرؤيا) والخاص قسمان امر رحمانى شريف . وامر
شيطانى خسيس . فالرحمانى الوحي للانبياء والكشف للاولياء
والشيطانى يعبرعنه (بالكهانة) وهي اما ان تكون بغير استعانة
بشئ من المحسوسات وذلك كان كثيراً فى زمن النبوة واما
ان يكون بالاستعانة بالمواد كالحصى وعظام الدواب والنظر فى
الماء او الزيت المسمى (بالمَنْدَلْ) او غير ذلك ومن هذا القسم
{ التنويم المغناطيسى } الذى حدث باروبا فى هذه الايام . واعلم

ان القسم الاول من الكهانة ارقى من الثانى لعدم الاحتياج
الى الاستعانة فيه بشئ . ثم ان كلا القسمين يكون فيه الصدق
والكذب وهذا من جملة الفارق بين النبوة والكهانة { واما
تحضير الارواح على ما يزعمون } فهو لا يخرج عن قسمى
الكهانة المذكورين فافهم . ولو شئنا لشرحنا هذا المقام شرحا
وافياً كما شرحه الفلاسفة قديماً وحديثاً ولكن خوف طول
المقام وسآمة القارئ الجأنا الى احالة من يطلب زيادة الشرح
والايضاح على { مقدمة ابن خلدون } رحمه الله ففيها غنى
لذي البصيرة

﴿ الكلام على ان قوى النباتات الثمانية ﴾
﴿ التى تقدمت مشتركة بينها وبين الحيوان ﴾
{ والانسان وانها فيهما اظهر }

اعلم ان هذه القوى الثمانية التي ذكرناها في انبات والمعنا في
شرحها انها فى الحيوان . ايضا هى اوضح واظهر فى الحيوان منها في
النبات . الم تر الى المعدة فان الانسان اذا أكل وكان آخر طعامه هو
الحلو ثم تقاياه كان الحلو آخره نزولا فدل ذلك على ان المعدة جذبته

الى أسفل وليس ذلك الا بقوة او دعها مبدعها فيها ثم متى احست بالمر
تحركت لاخراجه سريعا ونبذته وتقاياه الانسان بدون اختياره. فقارن
ماسمعته الآن بما ذكرناه قبلا في امتصاص النبات وفى قولهم ان صعود
الماء فيه بقوة شعرية . وقد جاريناهم على ذلك اولا ثم برهنا على ان
ذلك كله ملائكة سارية فى كافة الاجسام لانتظام أفعالها . (تذكر
ما قدمناه عن الغزالى وابن سينا من ان ما يسميه الطبيعي قوة يسميه
الشرع ملكا) وان المنافذ الشعرية عبارة عن استعداد فى الجسم لا يلزم
منها هذا الجذب .

{ أخلاق وآداب }

ها انت ايها الاديب رأيت الانسان والحيوان يشاركان
النبات فى ان الكل يتغذى فاذن لم نخلق نحن لهذه القوة بل خلقنا
لامر عظيم وسر غريب وهو العلم وها انت ادركت بالبصيرة
ان كل نبات يأخذ من الاغذية ما يلائمه كما وكيفاً فلنقتد نحن
به في التوسط فى الغذاء، كيف لا ونحن اشرف منه افلا نأخذ
الاصلح لاجسامنا ولنقتد بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم
حيث قال كما رواه فى الاحياء { البطنة اصل الداء والحمية اصل
الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد عليه } والحمية الجوع وتخفيف

الطعام والقسطاس المستقيم والكلام الجامع قوله تعالى *(وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين)* فما اجمع هذا
الكلام الذى جمع قانون الحكمة فى ثلاث كلمات . فالمدار على
الاعتدال فى جميع الاشياء *(اِعْدِلوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتقوى)*

—{ حواس الانسان والحيوان الظاهرة }—

مما تقدم عرفت ان ما به بقاء الشخص والنوع في الانسان والحيوان
والنبات متحد النوع والقوى . وهنا يتوجه سؤال حيث يقال لم صار
الحيوان حيوانا ولم اختص بالحواس كالسمع والبصر والشم والذوق
واللمس والادراك الباطنى والخيال والحس المشترك والمتصرفة والواهمة
والعقل الذي اختص به الانسان وهكذا كل ما به العلم وكذلك آلات
الانتقال كالرجل والجناح والخف والحافر والبرثن وما به جلب النفع
ودفع الضر كالايدي ولعمري ان هذا السؤال يرتاح له الفطن الذكى الذى
انفتحت بصيرته بمزاولة العلوم ورياضة النفس وكثرة البحث ويضحك
من ذكراه الجاهل . أقول اعلم ان النبات لما كانت حاجته بين يديه
يجتذب غذاءه من الارض بعروقه ومن الهواء باوراقه والشمس تبزغ عليه
نهاراً والقمر ليلا غير محتاج لسوى ذلك فلم تخلق له تلك الحواس ولا
الآلات والا لكانت عبثاً وباطلا وجل الله ان يخلق مالا فائدة فيه
اما الحيوان فليس غذاؤه تحت رجليه كالنبات بل لا بد ان يمشى في

في مناكب الارض ويأ كل من رزقها ويستخلص لنفسه مايوافق
مزاجه ويستلذه طبعه وتميل اليه نفسه فاذن ما على الارض بالنسبة له
قسمان موافق ومنافر ونافع وضار وخبيث وطيب وجيد وردىء
فجعلت له حاسة البصر ليميز بها ما يوافقه ومالا يوافقه ·

—*{ الكلام على حاسة البصر }*—

فتأمل بعقلك أيها الانسان كيف أضاء الافق وأشرق الكون وتوهج
الفضاء بأنوار الكواكب وضياء الشمس ولوّن الحكيم القادر أنواع
الزرع بالأنوار البهجة اللطيفة البديعة السارة للناظرين من اخضر ناضر
وابيض ناصع . واصفر فاقع . واحمر قان · ثم نقل تلك الالوان بواسطة
اشعة الشمس العجيبة الى اعين الحيوان ثم رسمها على شبكيتها وانتقلت
صورها من الشبكية الى الدماغ بتلك الاعصاب الملونة باللون السنجابي
المعدة لنقل المعلومات من الحواس الى الحاكم ألاكبر والمسيطر الاعظم
وهو العقل الذي في الدماغ وزين تلك الصور في قلوب الحيوانات
وجذب افئدتها اليها حتى تسرع في طلب مأكولها بواسطة تلك الاعصاب
البيضاء التى هى اسفل من الاعصاب البنفسجية في الدماغ قد اعدها
الله للحركة بحيث ان الحيوان متى أحس بشيء وأوصله له عصب الحس
بادر الى الطلب باعصاب الحركة رحمة منه تعالى بالحيوان ولطفاً ورأفة ،
ولنضرب مثلا بالنحل والازهار فان النحلة ترى الزهرة من بعد فتشوقها

وتجذب قواها بمنظرها البديع الحسن الجميل ورونقها وبهائها ونضرتها
واشراق بهجتها حتى تأتي اليها النحلة سراعاً فتشرب من وسطها شراباً
سائغاً لها حلواً كما قدمنا فيستحيل عسلا فى باطنها ثم تمجه شراباً مختلفاً
الوانه لاختلاف اغذيتها طعماً ولوناً فيه شفاء للناس فتبارك الله أحسن
الخالقين وجميع افعال الحيوان والانسان على هذا المنوال · فانظر كيف
قدر الاشياء وهدى اليها فلولا خلق العين ماهتدى الحيوان لمنافعه
ولولا الاضواء والالوان ما رأى شيئاً ولا سلك سبيله ذللا وكم فى العين
من البدائع مما يدهش العقول ويحيرها ويأخذ بالنفس كل مأخذ اذا
عرفت طبقاتها وهى الصلبة · والقرنية · والمشيمة · والقزحية
الملونة بالاسود او الازرق او غيرهما · والشبكية · والرطوبة المائية
والبلورية التي هى كالعدسة المحدبة من وجهيها. والرطوبة الزجاجية
وكلها طبقات موضوع بعضها فوق بعض وضعاً هندسياً بحيث لو
اختلت واحدة منها عن موضعها اختل النظر ،

واعلم ان خطوط النور انما تجمع اذا مرت في جسم شفاف عدسى الشكل
اي محدب الوجهين كالعدسة او محدب احد الوجهين مستوي الآخر
او محدب الوجه الواحد ومقعر الآخر فمن العجيب ان العين مع شدة
صغرها قد احكمت احسن احكام لتستعد لدخول ذلك النور واستجماعه
فمنها محدب الظاهر كالقرنية ومقعره كالشبكية ومحدب الوجهين
كالرطوبة البلورية ونحن لو ذكرنا نواميس النور ثم طبقناها على وضع

العين وكيفية سير النور فيها ورسمه على شبكيتها صور هذه العوالم كلها
مع صغرها جداً ثم ذكرنا حكم الوان القزحية وسواد الصلبة وحكمة
خلق الاجفان والاهداب وتلوينها بالسواد وتلاصقها واستقامتها وتناسقها
وتداخلها عند الانطباق وما يلزم لها من رباطات واوردة وشرايين
واغشية وعضلات وجعل أكثر ذلك تحت ارادة الناظر لما وسعه هذا
المختصر . وانما غرضنا تشويق النفوس الى امعان النظر في هذه
المصنوعات فكم رأينا من يدرس هذه العجائب ولا يذوق لها لذة
لاعراضه عن كمال نفسه مع انه يظن انه من ذوي العقل والعلم وانما تلك
الكلمات التي تلقفها ايام الدراسة فقد ذهبت وهو غافل . وقس على
حاسة البصر في الاحكام والاتقان غيرها من الحواس فارجع اليها في
مظانها . هذا وكما جعلت الباصرة لتميز الحيوانات بها الاشياء من حيث
الوانها كذلك خلق لها السمع لتعرفها باصواتها .

الكلام على حاسة السمع

اعلم ان نظام هذا الكون أسس على الحركة والانتقال
فما ترى من شيء الاّ وله حركة ما حتى ان الارض وما عليها
والشمس والسيارات وتوابعها وذوات اذنابها وجميع الشموس
ومجموعاتها كلها سائرة فلا مستقر لها . فنحن مع ارضنا وشمسنا
مسافرون في فضاء الله الواسع وما احد منا بمقيم ذلك تقدير

العزيز العليم . ثم الاجسام التي على وجه الارض فضلا عن
تحركها معها ومع الشمس فهي تتحرك حركات قسرية اوطبيعية
وقد طبعت على الاختلاف والتباين في الثقل والخفة والكبر
والصغر وبرأت الحركات متخالفة في السرعة والبطء وقد خلق
الله سبحانه وتعالى بحسب العادة عند تصادم الاجسام اصواتاً
وهي لا جرم تختلف باختلافها فمنها القوي والضعيف والسار
والمحزن والحسن وغيره فلذلك اختلف حفيف الاشجار . وخرير
الانهار وصليل الحديد . ورنين الزجاج . وكر العجلة . وصرير
الريح والقلم والباب . وطنطنة الاوتار . وعجعجة الرحى . وقلقلة
القفل . وخفوق النعل . وصوت الرعد والمدافع وصياح
الديك . ومواء الهرة . وعواء الكلب . ونهيق الحمار . وصهيل
الفرس . وخوار البقر . ورغاء البعير وزئير الاسد . وتغريد
الطير . ونقيق الضفدع وغير ذلك مما لا يكاد يحصى وكلها
لا تخرج عما يحبه الحيوان وما يكرهه . فالسمع يعرف ولد
الظبية مثلا الفرق بين بغامها وزئير الاسد فيطلب الاول ويتقى
الثاني فانظر كيف خلق الله عز وجل تلك الاصوات المختلفة

ليهتدى باختلافها الحيوان . ومن العجب عند المتفكر اللبيب ان الاصوات قد وضعت في الجسم غير مقصودة بالاصالة بل بالتبعية فانها حادثة من قرع هواء النفس الحنجرة والحنك عند خروجه حاملا الاجزاء الفحمية من داخل الجسم لينبذها فى الهواء فانظر كيف حصلت منه هذه الاعاجيب كلها *(صنع الله الذى اتقن كل شئ)* *والله واسع عليم يؤتى الحكمة من يشاء*

ثم الكلام على الاصوات وعجائبها يطول وقد فصلناه فى مقالة طويلة لنا تحت عنوان (عجائب العناصر والحروف) وقارنا بينهما بما لم نسبق به . ثم ان الصوت من آيات الله تعالى كما قال *(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم انّ فى ذلك لآيات للعالمين)* ومن اراد ان يطلع على عجائب اختلاف الالسنة والالوان فعليه بتلك المقالة ضمن كتابنا (المقالات الجوهرية) ولعله يطبع قريباً ان شاء الله فهى كافية وافية .

ثم تأمل لو لم تخلق الاصوات او لم تكن الاسماع كيف

يحترس الحيوان مما يفاجئه من حوادث الدهر ونوائبه . ولعلك تقول ان النبات معرض لمن يقطع غصنه ويأكل ثمره ويعدمه الحياة . قلنا ان النبات خلق للحيوان والانسان فاذا جعل له العلم والارادة والقدرة فدافع بها عن نفسه فسد النظام ومن رحمة الله العامة انه لم يجعل له حسا بحيث يدرك الآلام والحر والبرد والا لكان العذاب عليه واصباً بلا فائدة تعود عليه . وانما ركب فينا الحس لنعلم ما يفاجئنا من الطوارى فنحترس منه وسيأتي تفصيله

الكلام على حاسة الشم

ثم لما كان بعض الموجودات لا يعرفه الحيوان بحاسة البصر ولا بحاسة السمع اذ بعض الوان النبات متقاربة او لا ترى لمانع كظلام الليل ثم اصوات الرياح الهابة عليها من كل فج قد لا تظهر فرقا عظيما لذلك كله جعل الله عز وجل فى الحيوان حاسة الشم وميز كل نبات برائحة مخصوصة حتي يميز ما يوافقه وما لا يوافقه وهكذا غير النبات .

الكلام على حاسة الذوق

ثم بعد ذلك قد لايحصل التميز ايضاً فخلق الله حاسة الذوق في اللسان فماقبلته هذه الحاسة مضغته الاسنان واستقبلته المعدة ومالم تقبله لمرض الحيوان او لنفور طبعه منه لفظته فكأنها بواب عند باب جسم الحيوان وهو الفم . ومن العجيب ان كل قصر يكون بابه من اسفل الا هذا فانه من اعلى ليكون بجانب العقل والحواس التي هي كالملك واعوانه استقرت بالطبقة العليا من الجسم مشاكلة لشرفها وعلو قدرها اذ الملوك لها اعلى مكان في الدولة . وقد مثلنا الانسان بقصر مشيد في رواية مختصرة وسميناها اعجوبة الزمان وحكمة الرحمن في خلق الانسان وفيها فوائد لطيفة وهي في كتابنا جواهر العلوم فانظره . فهذه حواس اربع وهي السمع . والبصر . والشم . والذوق فالسمع للاصوات والبصر للالوان والشم للروائح والذوق . للمطعومات . وكل منها في موضع مخصوص من البدن .

الكلام على حاسة اللمس

وهناك حاسة منتشرة في ظاهر الجسم وقد عمته وهذه جعلت لدفع الاخطار عنه ولجلب اللذة اليه فلولاها لما احس الحيوان بالحرق ولم يعبأ بالغرق فلو وخس او أحرق او قطع عضو من أعضائه لم يهجه ذلك ولم يحس بالموت ولهانت عليه الحياة فلم يحافظ على جسمه وصحته . (وقد اشبعنا الكلام على حكمة أكل الحيوانات بعضها بعضاً والآلام الناجمة عن ذلك والامراض التي تعترى الانسان والموت وأوضحنا ذلك كله اعظم ايضاح في كتابنا جواهر العلوم فارجع اليه ان شئت ترى العجب العجاب) وبهذه الحاسة تحصل اللذة عند اجتماع الختانين بين الذكر والانثى وبالجملة فهذه الحواس الخمس جعلت في الحيوان ليهتدى بها ويميز الضار من النافع فلو استوت نسبة الاشياء اليه نفعاً وضراً لم يخلق ذلك العلم له ولم يحتج الى الهداية وما احسن قوله تعالى ﴿ والذي قدَّرَ فهدى والذى أخرجَ المرْعى ﴾ فانظر كيف ذكر اخراج المرعى بعد ذكر الهداية ولعمرى ان تفصيل معنى هذه الآية يحتاج الى مجلدات ولكن

فيما ذكرنا تذكرة لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد
فرب اشارة ابلغ من عبارة .

—﴿ آداب واخلاق ﴾—

ايها الانسان الا تشكر نعمة ربك فى سمعك وبصرك
وذوقك فلا تنظر المحرم قال عنترة

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى * حتى يوارى جارتى مأواها

فانظر كيف اهتدى بعقله هذا الشاعر الجاهل الى مكارم
الاخلاق وحفظ بصره وانت اهتديت بعقلك وعلمك ودينك
فكيف لا يكف احدنا بصره فواخجلتاه . وكف سمعك عن
سماع مالا يليق ولسانك عن التكلم بما لا يعنيك قال تعالى
﴿قَدْ أفلحَ المؤمنونَ الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعونَ والذين
هُمْ عن اللغْوِ معرضونَ﴾ وقال تعالى ﴿واذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاماً﴾ ولا تلمس مالا يحل فمن استعمل هذه الاعضاء
فى مالم تخلق له اصبح من الخاسرين وكفر بالنعمة . واعلم ان
سامع المغتاب ونحوه شريك له قال الشاعر

وسمعك صن عن سماع القبيـ ـح كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

واسمع الحكم وجالس العلماء وخالط الحكماء وانظر جميل
صنع الله تعالى ولا تنظر لمحرّم قال عليه الصلاة والسلام « من
نظر الى امرأة اجنبية لغير حاجة كويت عيناه بمسامير من نار
يوم القيامة اه .

﴿ حواس الحيوان والانسان الخمس الباطنة ﴾

اعلم ان ما ذكرناه من الحواس الخمس الظاهرة وما سنذكره
من الحواس الخمس الباطنة وجميع الاعصاب المحركة والحساسة
والاعضاء والقدرة والارادة كلها جنود العقل وهى لا تحصى
فويل للانسان اذا اضاع هذا الجند ولم يفتح به مدينة العلم
حتى يصل الى جنة المعارف والعلوم التي عرضها اجل من
السموات والارض وما بينهما والاشارة تغني عن العبارة
فهاك الحواس الخمس الباطنة فان الحيوان اذا عرف صورة او
رائحة او صوتاً او طعماً او ملامسة او خشونة وبعد الجسم
المحسوس عنه مدة ثم عرض عليه بعد ذلك فبالله ما الذى يذكره
ان هذا الجسم هو الذى رآه من قبل اذا لم تكن عنده تلك
الاعراض في خزانة يخرجها منها عند الحاجة اليها . وكما ان

ارباب الدواوين والتجار يرصدون صادرهم وواردهم في
صفحات دفاترهم كذلك الحيوان يسطر ما علمه بحواسه بقلم
آلهى على صفحات ادراكه الباطنى فاذا رأى صورة كان
شاهدها من قبل عرفها سريعاً فاذا تراكمت الصور فى خياله
او طال أمد الرؤية اولم يكن أحكم المشاهدة بل مرت عليه
مروراً ابطأ فى تذكرها كأنه ينظر فيما عنده من الصور
المخزونة ويخرجها من بينها كما يخرج الانسان المتاع من بين
امتعة منزله وان قلت الصور او قصر أمد الرؤية وقد أحكم
مشاهدتها كان حضورها لديه سريعاً جداً . وان اختل بعض
هذه الامور ابطأ حضورها بقدره . اما اذا لم تكن مخزونة
لديه فمن اين يتذكرها . واعلم ان كل من شاهد صورة او
عرف شيئاً باحدى الحواس الخمس فانه لا بد ان يتذكره يوما ما
ولو فى مرضه او نومه فكل ما عرفه الانسان فهو باق فى
صحيفة فكره ولو نسيه لفقد احد الاسباب المتقدمة . وكثيراً
ما يعرض للانسان عوارض تذكره ما نسيه كالمرض الهائل
والنوم اذ الحواس تهدأ فيهما فتخلو النفس عما يشغلها فاذا مات

الانسان تعطلت الحواس مرة واحدة فيكشف عنه غطاؤه
فبصره يومئذ حديد . وقد يفعل ذلك صناعةً كالتنويم
المغناطيسى في البلاد الاوروبية وغير ذلك ولكنه جزئى بالنسبة
الى الموت الذي تظهر فيه الاعمال وتتضح وضوح الشمس
في رابعة النهار فيحترق اذ ذاك بالنار التى تطّلع على الافئدة
وتصير حيات وعقارب وآلام وتشهد الالسنة والايدى
والارجل بالاعمال ويقال له *(كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ
حَسِيباً)* وهناك تكون الحسرة فالنفس لا يغيب عنها شيء
ومن هنا يفهم قوله صلى الله عليه وسلم « الناس نيام فاذا ماتوا
انتبهوا » كأنه والله اعلم يشير الى ان جميع ما عرفهُ الانسان
من اعمال انصبغت به النفس صبغة مظلمة اذا كانت شراً وهو
لا يحس بتراكم الشهوات عليه والظلمات التى بعضها فوق
بعض فاذا مات وانطمست نجوم الحواس وانكدرت شمس
الروح ظهرت النفس الشرّيرة ملوثة بالاقذار بلا حجاب
وبضدها تتميز الاشياء فتكون هى اليقظة الحقيقية وهذه الحياة
هي النوم ولنرجع الى ما كنا بصدده فقد كاد يخرج بنا الكلام

عن موضوعه فنقول

وهذه القوة التي ترتسم فيها الاشياء تسمى عند الحكماء الاقدمين [1] بالحس المشترك وله خزانة تسمى [2] بالخيال وهى التي تقوم مقام الدفاتر بين يدينا كما اوضحناه وفيها نخزن تلك الصور الى وقت مسيس الحاجة اليها كما ذكرنا ولولاها ما اهتدى الحيوان الى منافعه الا بشق الانفس ولاسرع اليه الهلاك الا ترى انه اذا رأى نباتاً اخضر مثلاً له طعم لذيذ قد عرفه بقوة الذوق ثم عرض عليه مرة أخرى فلولم يعرف ان هذا الاخضر هو ذاك اللذيذ للزمه ذوقه مرة أخرى حتى يعرفه ولكن بالحس المشترك والخيال سهل الامر وعلم أن هذا الاخضر هو اللذيذ بعينه فيستعمله ولا يحتاج لبحثه مرة أخرى بذوقه وهكذا ثم اذا عرف الحيوان ذلك لم يزل ناقصاً عرضةً للخطر اذ لا بد له من عدو وصديق مثلاً .

ليس يخلو المرء من ضد وان * حاول العزلة فى رأس جبل

وقال تعالى *(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)* وهو وان كان فى الانسان فالحيوان مثله فالذئب مثلا عدو

للشاة وولدها صديقها فجعلت لها قوة فى الدماغ بها تدرك هذه المعانى وتسمى الواهمة [3] وخزنت فى خزانة لها تسمى الحافظة [4] ثم المتصرفة [5] وهى التي تحلل وتركب ما تقدم وسيأتى الكلام عليها . وقد ذكرنا قبلاً قوله تعالى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ واشرنا الى ان ذكر اخراج المرعى بعد الهداية وتقدير الاشياء من الطف الترتيب اذ ان هداية الحيوان بالحواس الخمس يهتدى بها الى انواع النباتات ومن لطائف القرآن ان هذا المعنى ذكره الله حكاية عن موسى عليه السلام حيث قال *(قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى)* وحكاية عن ابراهيم عليه السلام حيث قال *(الذى خَلَقَنى فهُوَ يهْدِين)* وانظر كيف قال الله تعالى *(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدَى)* الآية فعلمت من هذه الآيات الثلاث اتحاد هذا المعنى فى القرآن وعند سيدنا ابراهيم وموسى فلهذا قال فى آخر السورة *(انّ هذا لفي الصُّحُفِ الأُولى صُحُفِ ابراهيم ومُوسى)* فما اعجب حكم القرآن . ومن الغريب انه ليس في الكون الا تقدير الاشياء وتسويتها ثم

الهداية اليها. وهذا هو فحوى ما ذكر في الكتب الثلاثة فافهم.
هذه هي قوى الحيوان المركوزة فى رأسه التى عرفها الاقدمون
وزاد صاحب الملل والنحل حاسة سادسة تسمى الذاكرة (٩) وبها
يتذكر الانسان ما نسيه وهكذا قال الغزالى فى الاحياء وان
اردت المزيد فعليك بهذين الكتابين. والقد ذكر المتأخرون
من علماء هذا العصر في الرأس بيوتاً كثيرة جداً وذكروا
لكل ميل من أميال الانسان بيتاً مخصوصاً كالصدق والكذب
والمكر والعشق والخداع والزنا وشرب الخمر والقمار وحب
العلوم والمعارف والعلويات وغير ذلك. وبالجملة فقد زعموا جميع
الاخلاق على البيوت التى تشاهد فى جمجمة الرأس عند تشريحها
واثبتوا ذلك بكبر المادة وغزارتها فى بيت من البيوت المخية
عند الادمان على فعل من هذه الافعال فيحكمون ان هذا
البيت هو مركز هذه القوة. فكل من شرحوه وهم يعلمون
انه متصف بوصف من تلك الاوصاف ويرون احدى هذه
البيوت كبيراً يحكمون بان ادراك هذا الوصف مركزه هذا
البيت.

اما الاقدمون فقد حكموا بان له خمس خزانات فقط اثنتان
فى المقدم وهما الحس المشترك والخيال واثنتان فى المؤخر وهما
الواهمة والحافظة والاوليان للصور الجزئية المحسوسة بالحواس
الخمس والاخريان للمعانى الجزئية المدركة فى المحسوسات
والخامسة المتصرفة وهي التى تركب وتحلل وتتصرف تارة
بواسطة العقل وسموها (مفكرة) وتارة بواسطة الوهم وسميت
(متخيلة) وقالوا ان هذه القوى كمرايا متقابلة ينعكس فى
احداها ما انطبع في الاخرى. واستدلال الاوائل كما رأيته فى
كلام الشيخ داوود الانطاكي وابن سينا انه بفساد مواضع
تلك الادراكات تفسد الادراكات وبضعفها تضعف فاذا حجم
مؤخر الرأس فى موضع مخصوص ضعفت الحافظة التي هي
فيه وهكذا كل موضع بحسبه وبهذا عرفنا استدلال الاوائل
والاواخر ومع هذا كله فلنحكم بانهم ما وقفوا على الحقيقة
الى الآن ولن يقفوا ولا تظن ان كلام الاوائل يناقض كلام
الاواخر لاختلاف وجهة البحث عند من يدقق النظر فافهم.
وانما نأخذ من كلام الفريقين ان الرأس مستقر علوم الانسان

من محسوسات ومعقولات فهي دفتره ولوحه المحفوظ وكتابه
الصغير الجرم العظيم العلم وانه لا يمكن ان يوقف على كنه
اسراره مهما تغالى الباحثون فيه اذ هو من متعلقات الروح
وهى أمر ربانى من وراء علم الطبيعة فعلماء الطبيعة عن سمع
تلك الاعاجيب وفهم رموزها معزولون . ايطمعون ان ما
يمدون به من تشريح وطب وبيطرة يسارع لهم فى ادراك
الروح كلاّ انهم لمحجوبون ثم انهم فى حواسهم الخمس لمحصورون
على اننا لو سألنا كبراءهم عن تلك البيوت الصغيرة فى الرأس
كيف تسع كل ما يراه الانسان وكيف يتخيل ويرسم فى لوح
رأسه صوراً اعظم من الارض وكيف يرسم الكبير فى الصغير
لوقفوا فى حيرة واندهاش . وان قال قائل كيف تسع الشبكية
وهى جزء صغير من العين هذه الصور العظيمة . قلنا هذا
ايضاً من مواضع الاستغراب. على اننا نعلم ان الطبيعيين قرروا
ان الذي يبصر انما هو الحاكم الذي فى الدماغ وان العين آلة
لا تبصر فبيوت الرأس انما هي شرط للادراك لا انها هى
المدركة وان عبرنا بان المدرك قوة مرتبطة بها كان هذا من

قبيل الاقرار بالعجز لعدم معرفة كنهها . وهذا مقام لا يسع
البحث فيه هذا المختصر وانما نقول بالاجمال ان الروح كملك
له جندان جند ظاهر وجند باطن فلله سبحانه فى القلوب
والارواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها
وتفصيل عددها الا هو وجملة جنوده التى تشمل ما هنا
وغيره تنحصر فى ثلاثة أصناف . صنف باعث ومستحث اما
الى جلب النافع الموافق كالشهوة واما الى دفع الضار المنافي
كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالارادة . والثانى هو
المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عنه بالقدرة
وهى جنود منبثة في سائر الاعضاء لا سيما العضلات منها
والاوتار . والثالث هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس
وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهي منبثة
فى اعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد
من هذه الجنود الثلاثة الباطنة جنود ظاهرة وهى الاعضاء
المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت
آلات لهذه الجنود فان قوة البطش انما هى بالايدى وقوة

البصر انما هى بالعين وكذا سائر القوى وليس كلامنا في هذا
الباب في الجنود الظاهرة اعنى الاعضاء فاننا التزمنا في هذا
الكتاب ان يكون مدار بحثنا على البواطن وانما الظواهر
بالتبع . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة
ينقسم الى ما قد اسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس
والى ما اسكن المنازل الباطنة وهى تجاويف الدماغ المذكورة
آنفاً

واجمال الكلام ان للانسان ثلاث قوى . نباتية. وحيوانية .
وانسانية . فالقوة النباتية مركزها الكبد اذ بها يحصل الغذاء
والنمو والتوالد . فالغذاء والنمو لبقاء الشخص والتوالد لبقاء
النوع ويشير الى ذلك قول احكم الحكماء واعلم العلماء صلى الله
عليه وسلم (من تزوج فقد حفظ نصف دينه فليتق الله فى
النصف الآخر) اذ جميع اعمال الانسان ترجع الى هذين بقاء
الشخص بالتغذية والنمو وبقاء النوع بالتزوج فبهذا صح
التقسيم وهذا من حيث التقسيم كقوله عليه الصلاة والسلام
ما معناه(الصبر نصف الايمان) اذ أحوال الانسان اثنان صبر

وشكر لاغير .وهكذاأحاديث كثيرة اشتملت على معان عالية
وهى الحكمة الحقة هذا ولما كان الكبد مبدأ القوة النباتية
كان هو مورد خالص الغذاء المستمد من المعدة وهو يطبخ الدم
ويرسله الى القلب والقوة الحيوانية مركزها القلب ومنه مبدأ
الحس والحركة فيصعد من حرارته الى الدماغ ما يعدل برودته
ليقوم بتدبير الحس وينزل من الثانى الاول ما يدبر به
تلك الحركة . القوة الثالثة القوة الانسانيـة ومركزها الدماغ
ولذلك كانت الحواس امامها لتأتى لها بالمعلومات من الظواهر
الطبيعية ثم تتصرف هى فيها وتجردها من عوارضها طوراً
بعد طور حتى تصير معقولات صرفة *(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ
قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)*

آداب واخلاق

اعلم ان عالم الخيال عالم اوسع من عالم الحس واغلب العصاة انما تنشأ
معاصيهم من هذا فتراهم يسلطون خيالاتهم على الصور المخزونة
في الدماغ فلا يزال احدهم يحضر المحرمات ويتأمل في نفسه طويلا
حتى يستحسنها وتأتي الاماني والآمال الكاذبة قال تعالى *(ذَرْهُمْ

يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون)* وقال تعالى
*(فلذبتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله
وغركم بالله الغرور)* واغلب الناس لا شغل له الا بخياله
فيستحضر اعداءه ليقاتلهم في خياله او الثروة الماضية اوالمفروضة
المتمناة والحق ان كل هؤلاء ما عرفوا قيمة انفسهم اذ هي امر
عجيب وسر غريب وهذا الخيال والقوى التي فى الدماغ
تدهش العلماء وتحير العقول فان العوالم التي ترد على المخيلة اوسع
من السموات والارض وما بينهما بما لا يتناهى فياحسرة على
الناس ما يأتيهم من ادلة الا كانوا بها يستهزؤن ان في ذلك
لآيات لقوم يعقلون ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا
فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا
لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل
الكلب ﴾ ولعمرك لن تجد اكثر الناس الا يائسين من
الحياة واللذات بكثرة الحزن الذى لن تجد له اصلا الا تلك
المخيلة المستعملة في غير ما وضعت له .

اذا لم تسعك النفس فالكون كله * وآفاقه للجسم اضيق من قبر
وفي الفكر نيران وفى الفكر جنة * وما اكثر الآلام الا من الفكر

فعلى مريد الكمال ان يصرف قوى الدماغ وجنوده الى
الكمال وفتح كنوز العلم لئلا يضيع العمر سدًى بلا فائدة

﴿ غرائز الحيوان ﴾

اعلم ان الحواس العشرة المودعة في الدماغ ظاهراً وباطناً
مشتركة بين كافة أصناف الحيوان ولكن العجب كل
العجب من اختصاص كل حيوان بعلم على حدته وذلك
ان الله جلت قدرته وتقدست ذاته ابدع حكمة الحيوان
اذ خلق كل نوع منه لعمل لا يتعداه فجعل ادراكه على قدر
ما اشغل به ومن أغرب الغرائب ان كل حيوان متى خصص
بفن من فنون الهداية برع فيه وبلغ النهاية ولذلك نرى بعض
العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون ان الحيوان هو المعلم الاول
للانسان وقد ذكروا لذلك مشاهدات كثيرة حتى انهم رأوا
نوعاً من (اللقلق) قتل انثاه بتهمة الزنا ونوعاً من (الاغربة)
حكم على غراب فقتله وان النمل ينظم بيوته كما ينظم الانسان

وصفوف عساكره كاعظم قائد لاكبر دولة متمدينة عند
القتال ويخرجون عند حفر منازلهم بانتظام وغير ذلك مما
لا يكاد يحصى و (كلب البحر) المسمى (كاستور) وبناؤه
سداً عظيماً في البحر يفوق ما فعله الانسان بالهندسة المتقنة
حتى قدر بنحو مائتي الف فرنك امر مشهور معروف .
ويشهد لذلك كله قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ في
الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّادِمِينَ ﴾ واجمال القول ان لوازم الحيوان على قسمين
مشتركة . ومختصة فالمشتركة منحصرة في الاغذية والاكنة
كالاوكار والاعشاش وما يقي من الحر والبرد والمهلكات
وهذا القسم متوفر عند الحيوانات بحيث لا تحتاج لغير ما لديها
منه فترى كل حيوان مهتدياً لغذائه مكتفياً به قانعاً بعيشه الذى
يأتى له بسهولة وقد اكتسى بجلد قد يكون غليظاً ينبت عليه
شعر يقيه على حسب الاقليم الذي هو فيه ولذلك رقت جلود
حيوانات البلاد الحارة وغلظت جلود حيوانات البلاد الباردة

حتى انك ترى جلد « الدب » فى جنوب بلاد الروسيا غليظاً
جداً فما من جلد او ريش او صوف « لغنم » او شعر « لمعز »
أو وبر « لأبل » الا وهو موضوع بأحكام . كما ان كل نوع
منها اهتدى الى ما خلق له وعرفه معرفة تامة بفطرته حتى
ان بعض الحيوان يعرف الارض الجيدة الخصبة وضدها
قال الشاعر

سقى الله ارضاً يعلم (الضب) انها * بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس كدية * وكل امرئ فى حرفة العيش ذو عقل

وهذه حكمة نطق بها ذلك الشاعر العربى كما قال صلى الله
عليه وسلم * (ان من الشعر لحكمة) * فان الحيوان يعلم علماً
تاماً بمصادره وموارده المعاشية بحيث يعمل اعمالا تعجز عنها
مهرة المهندسين . وفي بناء « الكلب البحرى » لبيته كما سلف
ما يدع العقل حيران مندهشاً فى تلك الحكم الربانية الظاهرة
لذوي البصائر الخافية عن ذوى الابصار مع مشاهدتهم لها
فما أعجب هذه البدائع وأعجب منها غفلة الانسان عنها بل غفلته
عن عجائب عقله وحواسه الظاهرة والباطنة من الجنود التى لم

تروها . وقد اوسع الله له في المعلومات فى نفسه وفي الآفاق
ولكن لما كان فهم نفس الانسان وروحه يصعب عليه اظهر
له كل العجائب في الآفاق حتى في اصغر طير وحيوان . فهذه
الطيور كيف تبنى اعشاشها في الاغصان فى اعالى الشجر وكيف
تحترس من ان تصل اليها الايدي وكيف تجعل تلك الاوراق
والآلات بحيث تلتئم على هيئة منتظمة وكيف تضع بيضها فيها
وتحميه وتهيمن عليه بجناحيها ومن الغريب ان بعض الطيور
شوهد ذكرها وانثاها يتناوبان حضن بيضهما بحيث لا يستقدمان
ساعة ولا يستأخران عن الميعاد المحدد لذلك ثم انا نرى كل
حيوان يتقى الاخطار ويولى من العدو الادبار حتى اذا حل
الاسد بواد هرب منه كل حيوان الهاما من الله لها ان هذا
هو عدوّها ومن تأمل ماذكرنا عرف قوله صلى الله عليه
وسلم ﴿ لَوْ تَوَكَّلْتُمْ على الله حَقَّ توكله لَرَزَقَكُمْ كما
يَرْزُقُ الطيرَ تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بطاناً ﴾ واما المختصة
ببعضها فذلك ان لكل حيوان خلقاً خاصاً به وحرفة تناسب
احواله المعاشية فمنها الجبان (كالارنب) ومنها الجرىء الفتاك

(كالاسد والنمر) وذو الروغان والمكر « كالثعلب » وسليم
النية « كالغنم » والناظر للعواقب فى الرزق فيخزنه «كالنمل والنحل»
ومالا ينظر لها « كالصرصور والزنبور » ومنها الالوف كالحمام
« والكلب والهرة » وغير الالوف « كالحيوانات الوحشية »
ومنها الذكى « كالقرد » وضده « كالخنفساء » ومنها ما هو
معد للحمل وما هو معد للركوب وما هو للجر وغير ذلك .
وكل حيوان منها اتقن ما خلق له فترى « الحمار » اعرف
بالطريق الذى يسلكه من سيده الانسان و «الفرس والهجين»
اقدر على الكر والفر من غيرهما و « الارنب والنعامة » بلغا
الغاية في الجبن كما ان « الاسد » بلغ شأو الجراءة ومن هنا نفهم
حدود هذه الحيوانات التى ذكرها الحكماء من قولهم الفرس
حيوان صاهل ويريدون ادراكه الغريزي الذي خلق له والكلب
حيوان نابح ويريدون الادراكات التي اختص بها على حسب
ما خلق له

﴿ ما يميز الانسان عن الحيوان ولم كلف الاول دون الثانى ﴾

ان القارىء اذا رأى ما تقدم من اعمال الحيوان وغرائبه

التى منها ان كل نوع عالم بل بارع فى نوع من العلم يرد على خاطره سؤال وهو لم اختص الانسان بالتكاليف ولم قيل انه سيدها وقد خلق عاريا ضعيفاً لا جلد له كجلدها فى القوة يقيه ولا شعر له يحميه ولا ريش له يدفئه ولا يهتدى الا بهدى ولا يتعلم الا بتعليم زمناً طويلاً ولا يأكل الا بكد عظيم وعناء طويل اما هي فقد خلقت عالمة بمصادرها ومواردها مكسوة مرزوقة من حيث لا تحتسب حتى قال بعض العلماء بداية الحيوان نهاية الانسان . اي ان الانسان مهما برع فى العلوم لا يصل الى نظام هندسة العنكبوت فى نصب شباكه ولا النمل في مساكنه ولا النحل فى بيوته ولا كل حيوان فى معرفة شؤون نفسه ولا الطير في بنائه عشه الى غير ذلك .

ومن اللطائف ان رجلا من بلادنا بالشرقية نظر ليلا أرنباً جبلياً وهو يراود انثاه عن نفسها فامتنعت عليه تيهاً ودلالا فضربها بيديه وولى الى الجبل حتى توارى بالحجاب ثم رجع اليها يعدو وفي فمه عصف مأكول وورق مبلول فتفله فى وجهها نخرت لوقتها جاثية على ركبتيها خاضعة حتى قضى وطره منها

وهي تحنواليه . فذهب ذلك الرجل الى تلك الشجرة واتى بوريقات ومضغها بفيه ثم لطخ به رداء جارية ذات جمال وشرف فتبعته أينما توجه وكان ذلك فى بلدة تسمى (صفت الحنا) بالشرقية وكان ذلك الرجل اشعث اغبر رث الهيئة فخاف أن يراه الناس بهذه الحال فغسل ما لطخها به فأفاقت من سكرتها واخذت تضرب ذلك المسكين وهو يستغيث ثم ما صدق ان ذهب وفارقها واحرق تلك الشجرة التي فتنته كما فتنت اباه آدم وأمه حواء من قبله وهذه لم أطلع عليها فى كتاب ولم أنقلها الا عن ثقة من اهل الشرقية فأن صحت هذه العجيبه كانت من الغرابة بمكان. واعلم ان كافة علوم الحيوان بهذه المثابة فأين علم الانسان بالنسبة له حتى جعل سيداً عليه بل لم كلف الانسان دون الحيوان مع ان مقتضى هذا أن يكون العكس

اقول لم يكن ذلك الا بالعقل فقد عرّف الحكماء الانسان بانه حيوان ناطق اى متفكر بالقوة . وهذا الفكر ينال به جميع ادراكات الحيوان فيكون حقوداً كالجمل . وذا روغان كالثعلب ومختالا كالطاوس . وبليداً كالحمار . وجباناً كالارنب . وشجاعاً

كالاسد . ومتكبراً كالنمر . ومهندساً كالعنكبوت والنحل .
وبنّاء كانواع الطيور وغيرها . وحريصاً كالنمل . وقانعاً
كالخطاف . وهكذا فبهذه المنحة الربانية قدر على جميع ماتقدر
عليه انواع الحيوان بل استخدمها وغيرها لاستجلاب منافعه
ودفع مضاره فاكتسى بأصوافها وبما يخرج من بعض النبات
كالقطن والكتان وتدثر بجلودها واغتذى بلحومها وهكذا
فقد اعطى قوة تدرك الكليات وبها امتاز عن الحيوانات التى
هى مدركة للجزئيات فقط فان المهندس منها مثلا لا يعرف
الا القدر الذى به يعيش لا غير ولو أراد ان يصنع بيتاً آخر على
غير هذا الشكل لم يتيسر له اما الانسان فهو يتصرف بقواعده
الكلية فى كل باب من ابوابها . ولما كانت هذه القوة المدركة
للكليات لا تقف على الامور المعاشية فقط بل تعرف الحضرة
الربانية لما لها من الاطلاق فى المعرفة والجولان فى العالم
العلوى والسفلى اختص التكليف بالانسان بخلاف الحيوانات
فليست تدرك الا المحسوسات ومعانيها كما تقدم فمن اين لها
ادراك ما وراءها بل يستحيل عليها التكليف فالآمر والناهي

لها هي الشهوة والغضب بخلاف الانسان فله ارادة تتبع العقل
المعرف للعواقب حتى يكبح زمام الشهوة والغضب اللذين لا
ينظران الى العواقب بل الى العاجل السريع الزوال ﴿ انّا
عرَضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبَيْنَ ان
يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسانُ انّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾
ومن الحكم الربانية كما تقدم ان ادراك كل حيوان ومعرفته
وتمييزه وقوته جعلت مناسبة لما خلقت له فاعطى الحمار البلادة
وخلق للحمل والركوب وغيرهما وجعل صبوراً . ومنح الفرس
الذكاء وجعل لركوب الخواص وفى الحروب . وجعل الارنب
الجبن والضعف اللذان يناسبان ما خلق له وهو كونه قوتاً
لسباع الحيوان والانسان وهكذا

واعلم ان الانسان فى الحيوان كالملك فى الرعية فكما ان الملك
يتظاهر بالعلم لاقناع العلماء وبالحشم والخدم لاخافة العامة
وارهابهم وبالسلاح والجند لارهاب الملوك وبالزخارف
والزينة ليكاثر الاغنياء كذلك الانسان منح قوة العقل وفصلت
اعضاؤه صالحة لان تفعل ما يفعله كل حيوان باشارة العقل

فيروغ كالثعلب. ويسطو كالاسد. ويجبن كالارنب ويعدو
كالفرس. ويحقد كالجمل. ويترهب كالبغل . ويكثر شبقه
كالعصفور وهكذا. ولقد شاهدنا فى القاهرة رجلاً من
بلاد الشرقية برع فى ذلك التمثيل حتى صار فيه اشهرمن علم
فيخور كالثور. ويعوى كالذئب. ويصيح كالديك. وينهق
كالحمار . ويفعل فعل جميع العميان • ويتصنع كالنسوان •
ويتبختر ويتكسر فى الكلام كالنشوان. وربما نهق نهيقاً
يعجز عنه كل حمار. وراغ روغاناً يعجز عنه كل ثعلب وهذا
كله بفكره الدقيق الذى خصه به خالقه حيث جعله خليفة
فى الارض يتصرف في الحيوان والنبات ويقتنص اسود الغابات
ويجوب القفار ويركب الجوارى المنشآت فى البحر المواخر
ويذلل الصعاب فانشأ الادهم من الحديد بفكره الحديد وهو
الذى رصد الكواكب في البروج وعرف حسابها واستنتج
منها اوقات الخسوف والكسوف وعرف اوقات الصلوات
والحج والزكاة والتجارات وله احوال شتى واطوار مختلفة وربما
اخبر بالغيب وقرأ عن ظهر قلب وتارة يدعى السحر واخرى

يتكهن بل ربما كلم الموتى.

حكمة الخالق في اختلاف الاذواق

في حب العلوم والصنائع

ثم ان الحكيم جلت قدرته لم يدرأ ذرة فى الارض ولا
طبيعة ولا حيواناً ولا صنعة الا عند الاحتياج اليها الم تر الى
انواع الحيوانات كيف رزقت الاعضاء المناسبة لما خلقت له
كما وضحناه فيما تقدم وهكذا الانسان فانه لما كان القصد منه
الخلافة عن حضرة الرب فى هذا العالم اعطى غريزة وعلوماً
وآلات بقدر ما يؤهله للخلافة ولما كان هذا النظام الانسانى
والخلافة الارضية تحتاج الى صنائع كثيرة كالبناء والحدادة
والنجارة والزراعة والتجارة ورعاية الماشية والى علوم شتى
كالفلك وعلم تقويم البلدان وعلوم الجو كالحر والبردوالامطار
وغير ذلك وعلوم الالسنة كالنحو والصرف والبيان والبلاغة
وعلوم صحة الابدان وعلوم حقائق العلويات والسفليات وغير
ذلك اودع الله في كل طائفة من الناس شوقا الى نوع منها فلم
يتواردوا على مقصود واحد فالاختلاف انتج الائتلاف

والتنافر سبب التوافق ولذلك فسر بعضهم قوله عليه الصلاة والسلام (اختلاف أمتي رحمة) بهذا المعنى كما ذكره الغزالى فى الاحياء فهذا يميل الى الافلاك وذاك ينظر فى الاقطار وهذا يتوغل في اللغات وغير ذلك

ومن العجيب ان فكرة الانسان تسع كل هذه العوالم وما يلزم لها فى العلويات والسفليات وتعرف الاسباب ومسبباتها والمقدمات ونتائجها وانظر وتعجب كيف جعل الصوت معبرا عن تلك الصور القائمة بالاذهان وكيف ثم كيف خلقت الاعضاء مفصلة تفصيلاً صالحاً لعمل المقول والمعقول والمتصور والمتكلم به ﴿ يُدَبِّرُ الأَمر يفصل الآيات لعلَّكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ ثم انظر كيف جعل الله تعالى كل ما فى الارض طائعاً له منقاداً لاوامره تابعاً لاشارته خاضعاً لقهره وسطوته فلا يحتاج الى شيء الاّ تصوره وعقله ثم اهتدى اليه بحواسه ثم صنعه واستحوذ عليه وملكه باعضاء بطشه الصالحة لجميع ما يتصوره وهذه نبذة يسيره تحتها علوم لا تتناهى وعجائب وغرائب لا يفهمها الا أهل الاطلاع وذوو البصائر والاسماع فلم يبق من

لوازم خلافته في الارض شيء الا وهدى اليه وعرفه ﴿ الم تر ان الله سخر لكم ما فى السموات وما في الارض وأَسْبَغَ عليكم نِعَمهُ ظاهرةً وباطِنةً ﴾ ﴿ وسخَّرَ لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾

﴿ الحكمة في وقوف عقل الانسان عند حد مخصوص ﴾

(ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء)

كل ما ذكر ونحوه هو ما يحتاج اليه الانسان اما معرفة ما وراء هذه العوالم من العجائب فليس مما يحتاج اليه فى خلافته فلذلك لم يعطه الله سبحانه عقلا افضل من هذا لعدم لزومه كمعرفة حقائق المجردات كالملائكة وحقائق الاشياء على ما هي عليه فى الواقع لان حكمته سبحانه وتعالى قدأتمها وقدرته قد انفذها بما اعطاهم من العقل والفكر فاذن ما أعطوه من العقل والاعضاء والقوة كاف فى الخلافة وانتظام الملك الارضى فان نقص عن ذلك اورث خللاً فى الملك وان زاد العقل كأن عرف بواطن عجائب النجوم وحقائقها وما اشتملت عليه شغله ذلك عن خلافته وبالجملة كل ما ليس فيه ثمرة لخلافة الانسان

لم يحطه الله به علما ولما كان هذا الخليفة هو المترشح للترقى
الى عالم ارقى من هذا اودع فيه حب العبادة ودعاء الخالق
وتوحيده وتمجيده ليعرفوه قبل ان يخرجوا من الدنيا حتى انك
لا تجد احداً يسمع ذكر الله في مشارق الارض ومغاربها
وذكر نعيم الآخرة الا ويشوقه ذلك بالطبع والغريزة الفطرية
ومن البديهيات كما قدمنا انه ما من نوع من انواع العلوم
وغيره احتاجت اليه الناس في الدنيا والآخرة كالطب
والهندسة والحساب والفلك وغيرها وكالغذاء والتناسل الا
تشوقت اليه نفوسهم على قدر الاحتياج اليه فان عم جميع
الانواع كالغذاء عم شوقهم له وان اكتفى بعمل البعض
كالهندسة والطب انبعثت نفوس البعض فقط ويا سبحان الله
ان هذا الامر الطبيعي الذى يشاهد فى نفوسنا اشبه شيء بما
ذكروه فى كتب الفقه ان الحرف والصناعات تجب على الناس
وجوباً كفائياً فاذا قام بها البعض سقطت عن الباقين* (ولتكن
منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر)* (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين

ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)* ومعلوم انه
لا يقوم بذلك الا من عنده استعداد يجده فى نفسه فانظر
وتأمل تجد المطابقة التامة بين شرائعه الطبيعية والشرعية والفعلية
والقولية فانظر كيف ابدع صنعه واحسن اتقانه وترى كل
قوم من الناس فرحين بما آتاهم الله من الحرف والصناعات
والاحوال والعقول مع رضا الجميع واختلافهم فعقل الانسان
وشوقه وحبه وميله وطبائعه واعضاؤه وصنائعه وآلاته
ومقصوداته موزونة بميزان قسط ومثله الحيوان فما خلق له
الا ما يلزم لاتمام وظائفه ومن العجيب ان ادراكاته تناسب
اعضاءه فالثور مثلا لا يخطر بباله ان يكون مهندساً ولا بنَّاء
ولا صانعاً اى صنعة فلذلك لم تخلق له الايدى التى بها تلك
الصنائع والاعمال ثم استعدت رقبته وقوته لجر المحراث فى
الارض ثم انه لو تصوَّر ان يكون مهندساً مثلا واعطى آلة
ذلك من اليدين والنطق لشارك الانسان وغالبه وضاعت
حكمة نظام الكون فترك كل حيوان وظيفته وتعدى طوره
وخرج من تحت نير ذل الرق والعبودية والطاعة للانسان

وهذه كلها من الميزان الذى أسست عليه السموات والارض وما بينهما

برهان على وجود الخالق واليوم الآخر

(وفى انفسكم افلا تبصرون)

قد ظهر من هذا برهان جليٌ على وجود الصانع واليوم الآخر لم ارد مسطراً فى كتاب وانما ظهر بطريق التبصر والاعتبار وذلك انا قد عرفنا بطريق النظر فى ميزان هذا العالم انه لم يوجد شوق فى النفوس وارتياح لامر الا ولهُ داعية يحتاج لها الانسان وما لا يحتاج اليه لا تشتاق اليه النفوس البتة واشواق النفوس الصادقة متجهة دائما الى حق وصدق كما قررناه آنفاً وحينئذ نقول ما الذى شاق جميع نفوس العالم الى الاتجاه الى صانع هذا الكون ولو عند حصول خطر اذ لا تجد لها بداً من اتجاه الفكرة الى مدبر الكون وهذا الشعور عام فى كافة اصناف الخلق فلم خلقت جميع اشواقه حقة ولم يكن مثالها هذا مما لا يكون

ثم ان كل انسان يشكو دهره

كل من فى الكون يشكو دهره * ليت شعري هذه الدنيا لمن

فلا يملأُ عين ابن آدم الا التراب بل لا يقنع بما تحويه البسيطة ولو امتلأَت ذهباً فهذا حنين من النفس الى نعيم تلتذ فيه وتصل الى غاية مناها ولم نجد نفساً فى الدنيا قنعت بمناها وترى النفوس ايضاً كارهة للفناء ولذلك تكره الموت لانها تجده يهدم بنيتها وكل نفس تحب البقاء ولذلك يخلدون اسماءهم على الحجارة ويكتبونها لتبقى زمناً طويلاً فهل تخلق جميع الاشواق على الحق وتبقى هذه وحدها شوقاً الى باطل وضلال هذا ما لا يقبله القياس العقلى وانما ذلك من النفوس دليل على بقاء النفس بعد الموت ابد الآباد كما هو امنيتها وعلى ان لها نعيما تقتنع به ولا تطلب فوقه مزيداً ولذلك ورد في الحديث فى خطاب الله يقول (يا عبادى هل رضيتم فيقولون كيف لا نرضى وقد اعطيتنا مالم تعط احداً من خلقك فيقول انا اعطيكم افضل من ذلك فيقولون واى شئ افضل من ذلك فيقول احل عليكم رضواني فلا اسخط بعده ابدا (او كما قال وهذا الحديث رواه البخارى فهذا هو النعيم الذى تتشوق

اليه النفوس فى الدنيا وان كانت لا تعرفه فلذلك لا ترضى بمنزل
تنزله فى الدنيا الا وتطلب ارقى منه كانها مستشعرة بانها ارقى
من ذلك كله وارفع واعظم فظهر ان اميال الانسان وغرائزه
من دلائل الميزان الذى قامت به السموات والارض وتدل
على وجود الصانع جل وعلا وعلى اليوم الآخر ونعيمه او
ضده وربما اخذ من آيات القرآن الكثيرة فانه طالما اخبر فيها
بالتأمل فى العجائب ويذكر معها الصانع واليوم الآخر كقوله
﴿ يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾
واعلم ان هذا المقام قد فصلنا الكلام فيه تفصيلا حسناً ببراهين
عالية فى كتابنا (المقالات الجوهرية)

تتميم

فظهر من هذا كله ان الانسان لا يمكنه ان يتعدى طوره
فى افكاره ولا يتجاوز مقداره والا لبطلت حكمته فلا يمكنه
ان يكشف له فى الغالب عما كشف للملائكة من المغيبات ولذلك
لم يمكن الانسان الى الآن ان يعرف مفصلات الكواكب
ولا اعدادها ولا آخر العالم بل لم يصل الى انه هل الارض التي

هو عليها ساكنة ام متحركة وما هى روحه وما هذا الضوء
المحيط به وما حقيقة هذه الكواكب وانما اخفى الله حقيقة
ذلك عنه لعدم لزومها له ولذلك اختلف العقلاء فى ذلك اختلافاً
كثيراً بظنونهم لا بتحقيقهم كما ذكرناه آنفا ومن ذلك عدم
معرفة كنه الكهرباء والمغناطيس والجاذبية فكل هذه حقائق
الى الآن تنادى جميع الامم بانها لم تزل فى حيز الخفاء ولن تزال
وما ذلك الا لعدم الحكمة فى معرفة حقائقها ولقد صرح
القرآن الشريف بنحو هذا فقال ﴿ ويسألونك عن الروح
قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ وانما
لم يؤت الناس من العلم الا قليلا لعدم احتياجهم الى غير ما أوتوه
فى نظام هذا الكون فلا تتجاوزه عقولهم فكما ان الحواس
الخمس لها مقدار لا تتخطاه فالسمع لا يدرك صوت النمل
والبصر لا يشاهد خفايا جسم الانسان (مع انهما لو أعطيا
فوق ذلك من القوة لادركا ادق من ذلك) كذلك العقل
لا يتجاوز مقداره الذي خلق له ولو زاد عن ذلك لادرك
ما فوقه

فصل

قلنا ان جميع الحيوان وسائر مافي الارض من العوالم خلقت
لمنافع الانسان وعلى ذلك استخرج كنوز الارض من الزراعة
بواسطة استعمال القوة الحيوانية والطبيعية والآلات البخارية
وغيرها والعسل من الازهار بالنحل الذى يجمع ما أرقّ من
الازهار وتحال فى بطنه الى شراب مختلف الوانه فيه شفاء
للناس ولا زال يتتبع افراد الحيوان والنبات والجمادّ حتى عرف
الضار والنافع والحلو والمر والمتوسط والغذاء منها والدواء والداء
واستخرج القطن من شجره والكتان والحرير فلبس منها
ما أراد واستحسن بعضها فاصطفاه للزينة وآخر جعله تقاة من
الحر والبرد والعقل هو الذى كفاه كل هذه المؤن وبه اقتنى
شوارد العلوم فتعلم وعلم واستفاد وافاد وهو لطيفة ربانية وردت
من الرحمة الآلهية وكل علم من العلوم كامن فيها كمون ماء
الورد فيه وانما تتجلى تلك العلوم بالتعليم وبصفاء النفس من
دنس الذنوب والشهوات

(نوع الانسان كله كشخص واحد يعمل في صغره لنفسه في كبره)

﴿ ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ﴾

خلق الله عز وجل الامم على هيئة الانسان الواحد فكما
انه يخلق اولاً الانسان ضعيف الشعور كذلك الامة تكون
اولا ضعيفة المدارك وكما ان الانسان يشب شيئاً فشيئاً ويقوى
ادراكه وتصوره فكذلك الامة تأخذ فى الترقى شيئاً فشيئاً
حتى يعلو قدرها وتسمو مداركها كيف لا وما الامة الا
افراد مجتمعة فعلى نسبة تقدمهم يكون تقدمها واقرب من
ذلك ان الكل عبارة عن اجزائه وعلى حسبها تكون هيئته
وشكله وكما ان الطفل لا يعطى الا ما يحسن التصرف فيه ويمنع
منه مالا طاقة له به من الامور الكلية والسياسات وتدبير
المنزل والحل والعقد فى الامور كذلك الامة متى كانت في
اول نشأتها لا يسلم لها مدبر هذا الملك الحكيم من صنائعه
التى خلقها الا ما ظهر منها دون ما بطن فيا كلون النبات
ويقتنصون الحيوان ويشربون الالبان ويركبون الدواب
ولذلك قال ﴿ وسخرناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يا كلون ﴾

فاذا اشرقت العقول وأضاءت اخذت تبحث عن خفايا الطبائع
وما فيها من البدائع فاذا بلغت رشدها وآنست من جانب طور
المدنية ناراً واشرقت عليها نيرات العلوم والمعارف قال رائدهم
لقومه امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس فاخذوا
يحللون المركبات ويركبون المتفرقات ويضربون في البلاد
شرقا وغربا ويبحثون على الآثار القديمة وحينئذ يعطي لهم مدبر
هذا الكون ما ادخره لهم في مكنون الطبيعة ولذلك تراهم
ركبوا الادهم من الحديد وجعلوه قائماً مقام دواب الحمل وعرفوا
الكهربائية والمغناطيسية وغيرهما واستخدموها في مخاطباتهم
ومراسلاتهم فانظر حكمة الله عز وجل فان الناس يحتاجون
في حال ترقيهم لكثرة لوازمهم الى ما يحمل اثقالهم التي تناسب
مدنيتهم التي لا تفي بها الدواب اذ لا طاقة لها بحمل تلك
الذخائر والآلات الحديدية العظيمة ويفتقرون ايضاً الى سرعة
الخطاب والجواب اللذين تدعو اليهما المدنية اذ هي عبارة عن
الجامعة التي كلما ارتقت كثرت المواصلات والمخاطبات والمراسلات
والتجارات والنقل بين افرادها وذلك انه كلما كان الشيء ارقى

وارفع كثرت لوازمه وحاجاته فانظر كيف رتب الله الطبيعة
على قسطاس مستقيم فجعل منها ظواهر يسهل تناولها للامم
في حال طفوليتها كالنبات والحيوان واخفى غرائبها عنهم حتى
يبلغوا رشدهم وكيف صرف بصائر الناس وعقولهم عن كنه
الكهرباء مثلاً وطبيعة البخار وقوته مع انهم كانوا يشاهدون
الاول في الكهرمان والثاني كل يوم فيعلو على وجه الماء وكيف
ادخر لهم الفحم الحجري الذي صنعهُ لهم من قبل ان يخلق
اباهم آدم بقرون كثيرة واسكنهُ في اعماق الارض وكيف
جعل العقل ينمو ويأخذ في التدريج واعطاه القوة التي بها يصل
الى كنه الطبائع ويحللها وهذا أعجب العجائب واغرب الغرائب
فان طبائع العالم مرتبة من الظاهر الى الخفي الى الاخفى ثم
فطرت العقول على الاخذ في الترقي شيئاً فشيئاً فتعرف اولا
الظاهر ثم الخفي ثم الاخفى مراتب لا تنحصر ودرجات لا
تتناهى وهذه الطبائع الكونية مناسبة لاحتياج هذا الانسان
تمام المناسبة وترى عقول الامة بل الامم تتعاون على المصالح
وتتعاضد على المنافع وتتضافر على التعاون وتتحد على الاصلاح

مهما تباينت اغراضهم وتنافرت اخلاقهم وتباعدت ديارهم
وتقاصت اماكنهم فهم سالكون مناهج الجد والله يعطيهم من
خليقته عند الاحتياج ما يتمنون ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفّار ﴾
فالعقول كلها متجهة الى الاصلاح العام فعملها فى الحقيقة
واحد من حيث الوجهة ولذلك ترى اسرار الطبيعة اعانتهم
على ذلك فترى الخبر يدور في الكرة الارضية في لمح البصر
او هو أقرب ان الله على كل شيء قدير فيخاطب الغربى
الشرقي ولم ينتقل احدهما من مكانه ﴿ صنع الله الذي اتقن كل
شيء ﴾ وهذا كله فى الحقيقة توحيد عملي كأن هذه الخلائق
جسم انسان واحد وهي تتعاون على مقصوده فكل عضو
من اعضائه متجه لمنفعة سائر الاعضاء قال الله تعالى ﴿ وسخّر
لكم ما فى السموات وما في الارض جميعاً منه ﴾ وقال عليه
الصلاة والسلام (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)
فالطبائع والعقول والنقول ناطقة ودالة على الاتحاد وعلى
الاصلاح وتمام النظام وذلك دليل على ان ذوي الاضغان

والاحقاد خارجون عن سنن هذه العوالم شاذون عن جادتها
منصرفون عن وجهة الحق عز وجل فى بريته فاؤلئك احق
بالبعد عن الله عز وجل فمحبة الخير لجميع الناس من آكد
الواجبات واقرب القربات كيف لا وقد خلق الانسان في هذه
الدنيا لتحصيل الكمال فمتى شغل نفسه بشوكة تشوكه حتى
عاقته عن الكمال عُدَّ من الجهال وبئس المآل والحال فليكن
الانسان كما قيل

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... فاكره ان اكون له مجيبا
يزيد سفاهة وازيد حلماً ... كعود زاده الاحراق طيبا

ولقد اعتذر رجل من احد الصالحين عما فرط منه فى غيبته
فقال له ان نفسي ليست منصرفة عن الحق الى ما يقوله الناس
وليس لذلك عندي ادنى تأثير فعلى كل عاقل ان يجدّ فى منافع
الناس فان هذه وجهة الحق جل جلاله فيهم ولذلك ورد
فى الحديث (ان لله عباداً مفاتيح للخير مغاليق للشر فطوبى
لمن جعلت الخير على يديه) فكلما كان نفع الانسان للناس
اكثر كان نظر الحق جل جلاله له اكثر واعظم بل كان اسرع

له بالرحمات والهبات والى هنا تمّ ما اردته من الكلام على
ادراك الحيوان وعقل الانسان

(الكلام على الارادة والقدرة اللتين فطر عليهما الحيوان والانسان)

قد سبق الالماع الى هذا الباب بطريق الاختصار ولنعد
الكلام الآن بابسط مما تقدم لفوائد سنذكرها بعد ان شاء الله
تعالى فنقول اذا عرف الحيوان الضار والنافع ولم يكن فيه داعية
للجلب او للدفع فليس يغني عنه علمه شيئاً فخلق الله عز وجل
في كافة الحيوانات داعياً نفسانياً وقاهراً يقهرها على طلب
الغذاء ولولا هذا الطلب النفساني ما بقي حيوان ولا انسان
ولكن هي الحكمة الربانية الفعالة في النفوس لتقهرها على
ما به تمامها ترى الحيوان اذا خلت معدته او حوصلته يحس
بألم يصحبه شوق الى طلب الغذاء نظير الالم والشوق عند
مريد التعلم وهذا هو المسمى ارادة فما اعجب هذا الوضع وما
ابدع هذا الصنع فان الحيوان او الانسان مهما اطلع وبلغ
نهاية العلم بحسب طاقته ومبلغ قوته لا يستطيع ان يتناول
الغذاء مالم يكن له قاسر عليه وهو الالم اولا والشوق ثانياً وكذا

التزاوج فليس يطلب ذكرها الانثى الا للذته وشهوته فيقضي
وطره ولا يبالي اكانت انثاه عقيما او من ذوات الحمل فهذا
مقصد الحيوان وكذا الانسان الا ذوي الكمالات والنفوس
القدسية فانهم يجنحون الى ما تقتضيه الحكمة الربانية من ان
القصد بقاء الجسم بالمآكل وبقاء النوع بالمناكح وبالجملة فالالم
والشوق في الحيوان والانسان للمآكل والمشارب والمناكح
يصحبهما طلب الى المشوق قطعا وذلك الطلب هو الارادة
فالحيوان انما يقصد شهوته والحكيم انما يريد بقاء ملكه ونظامه
(فنحن بواد والحبيب بواد) وهذا هو التدبير والسياسة التي
كاد يحوم حولها اسكندر المقدوني حين اشغل اكابر فارس
بالملاذ والشهوات ليدوم ملكه فلهم ما يشتهون من الملاذ
وله ما يريد من نظام ملكه واستتباب السلطة وعلو الكلمة
والسلطان والقهر والجاه والامر

وكما يطلب الحيوان غذاءه وملاذه يجنح الى الهرب من
عدو يفجؤه او ضد ينازعه فيما لا غنى عنه فانه متى استشعر بما
ينافر البقاء من ازهاق روح او قطع عضو او استئثار بغذاء او

منع ما به الحياة كره ذلك طبعاً وطلب الخلاص بقوة الغضب
— ثم الارادة اما لجلب نفع او لدفع ضر وهذه الارادة لا
تغني عنهُ شيئاً مالم تكن له اعضاء تقوم بتحصيل ما علمه
واراده وطلبه ودفع ما علم منافرته واراد الهرب منهُ — ومن
بديع الاتقان والحكمة ان اعضاء كل حيوان فصلت على
مقتضى احواله ومصالحه ليعرفه بحواسه ويطلبه بارادته فهذا
مفصل فى كل حيوان باجلى تفصيل وأوضح سبيل وتعداده
يحتاج الى مجلدات كثيرة انظر الى الاسد مثلاً فانه لما اودعت
فيه القوة الغضبية آخذة نهايتها مع جعل غذائه من لحوم
الحيوانات منح ما يناسب تلك الأُبهة والجلال والمنصب
كالمخلب وحدّ الناب وظهر ذلك في لحظاته التي تحسبهن جمراً
متوقداً واعطى من القوة ما يفتت الصخر وظهر ذلك في
زئيرة وهكذا كل حيوان في مشارق الأَرض ومغاربها قد
جعل تفصيل اعضائه وأمور حياته مناسباً لحاله وانظر كيف
فصل الجناح والارجل صالحة للطلب والهرب والفم والاسنان
واللسان للتعاطى وقد بثّ في تلك الاعضاء قوة عظيمة في

سائر اجزائها فانظر كيف علمها النافع والضار بواسطة الحواس
الظاهرة والباطنة ثم كيف بث فيها الارادة ثم اعطاها هذه
الاعضاء والاطراف مناسبة لما تريده ثم اعطاها قوة فيها
لتتحرك بها تلك الاعضاء متى صدرت الارادة ﴿ انّ ربكم
لرؤف رحيم ﴾ ثم ان ما يتعاطاه الحيوان من الخارج بقدرته
منه اختياري وهو نحو الغذاء والمنكح فاما حركة الغذاء وكيفية
هضمه والكلام على آلات الهضم والقناة الهضمية الخ فمحله
كتب الطب والتشريح وهو يخرج بنا عن غرض الكتاب
ومنه اضطرارى ليس له في دفعه اختيار ومنه ادخال الهواء
بواسطة الشهيق واخراجه بواسطة الزفير فهذه حركة اضطرارية
لا يقدر على دفعها فالنفس جُعل لاخراج المادة الفحمية المضرة
بالجسم التي لو بقيت بضع دقائق لفارقت الروح الجسم
ولادخال المادة الصالحة للتغذية كالاكسوجين وهو مع ذلك
قد جُعل فيه فائدة أخرى وهى الصوت الحاصل من تماس ذلك
الهواء اللطيف مع الحنجرة والفم واللسان حتى ان الانسان
ليعبر بمقاطعه المختلفة المشكلة على اشكال شتى عما يخالج ضميره

من التصورات وهكذا جميع الحيوانات بخلاف النبات فانه
وان كان لا بد له من صوت خفي عند خروج المواد الفحمية
منه كصوت صغار الحيوانات من الاوراق فذلك لا يقصد
به الا ذلك الاخراج لا غيره اذ لا علم عنده ولا تصور ولا
شهوة حتى يعبر عنها بذلك الصوت ولعلك تقول ربما استغرب
قومٌ ان النبات صوتاً من تنفسه وانكروه قلنا ليس ينكره الا من
لم يدرس العلوم الطبيعية فان الآلات الحديثة والاستكشافات
الجديدة ابدت مكنونات من الغرائب وان كل حركة وان
دقت جداً فلها صوت حتى دبيب النملة على صمّ الصفا وهذا
تشهد به غرائز العقول وان لم يستكشف اما الحيوان فانه ينوّع
صوتهُ ليدلَّ على ما في ضميره وان كثرت صورُه وتعددت
معلوماته فيا للعجب ان ما يتصوره الحيوان يخرجه الى ظاهر العيان
بصورتين ويشكله بشكلين ويسلك به سبيلين فاحدهما بالنطق
وثانيهما بالفعل فاذا استحضر في خياله صورة اخذ يعبر عنها
بمقاطع صوته وجدَّ في تحصيلها او الهرب منها بقدرته واطرافه
وبطشه قال الله تعالى ﴿ قال ربُّنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم

هدى ﴾ فبين النطق والقوة العاقلة مناسبة اذ هي المظهرة
ما فيها من التصورات كما ان بين القول والعمل مناسبة ففساد
قول الرجل دليل على فساد فعله وصلاحه دليل على صلاحه ـ
فان صدق الرأي وصح الفكر حسن القول والعمل اذ هو
مصدرهما واصلهما ومتى صلح القلب صلحت الجوارح وليس
المراد بالقلب سوى العقل لا ذلك اللحم الصنوبري الشكل فانه
في البهائم والاموات وقال الشاعر اصالة الرأي صانتني عن
الخطل) وهو الفساد في القول والعمل والسداد في القول يصلح
العمل قال الله تعالى (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً
سديداً يصلح لكم اعمالكم ﴾ وقال الشاعر (القصد في القول
ينفي الجهل في العمل) فظهر ان بين هذه الثلاثة مناسبة تامة
وارتباطاً قويا ولقد ظهر هذا على ألسنة العامة حيث يقولون
يعرف الاحمق بكلامه ولقد صدقوا فانه ترجمان عن القلب
والفعل ترجمان آخر فيدل على فسادهما معا بفساده وليس اجمع
لهذا المعنى من الحكمة النبوية قال صلى الله عليه وسلم ان في الجسد
مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد

كلهُ ألا وهي القلب) وبالجملة فعلى العاقل ان يتحفظ على جميع أقواله وكافة أفعاله فان لكل منها أثراً يرجع الى قلبه يورثه ظلمةً أو نوراً ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول لقد ظهر بالاستكشافات الحديثة ان كثيراً من الحيوانات لها لغات تتفاهم بها مع بعضها حتى انهم سمعوا للنمل كلاماً بان وضعوا عددا عظيما منها بين لوحين بكيفية مخصوصة ورفعوا احدهما من احد جهتيه فسمعوا اصواتاً عند اصغائهم اليها وبعضهم راقب الذباب وعرف بعض مقاطع دالة على معنى وكلام الفيلة امره مشهور فى الهند بحيث ان الخدمة يعرفون كلامها كما هو معلوم من الاخبار والاكتشافات

لطيفة

يفهم مما تقدم ان المولدات تنقسم ثلاثة اقسام الاول ما لا ارادة له اصلا وهو النبات ولذلك ربما يمتص الماء بكثرة فيموت . الثانى ماله ارادة تابعة للشهوة والغضب وهو الحيوان فقد خلق الله له شهوة بها يطلب الملائم له ويكرهه عند الشبع ولولا الكراهة فيه لهلك بكثرة الاكل والشرب والخلاصة ان ارادته ليست تابعة الا لشهوة اوغضب ولكنه ربما يأكل في الحال ما يضره فى الاستقبال فلم تخلق له تلك القوة المعرفة

للعواقب فخلقها الله للقسم الثالث الذي خلق فى أحسن تقويم وهو الانسان فخلق الله له العقل الذي يعرفه العواقب . وحيث اننا تعرضنا لذكر العناصر وان الحيوان والنبات والانسان كلها ناشئة منه ووصلت الى غاية عظيمة من العجائب والغرائب وفيها كل هذه الحكم وكانت اصوات الانسان خاصة الناشئة عن دخول الهواء وخروجه بها تدرك الصنائع وتفهم العلوم وعليها أسست المدارس بل لولاها ما زرع زارع ولا غرس غارس ولا ارتقت المدنية أوج السعادة فلذلك كله افردت العناصر والحروف بمقالة على حدتها وذكرت فيها عجائبهما وقارنت بينهما ولم اعلم على حسب ما اطلعت عليه انى سبقت بهذا الموضوع وقد عنونته بهذا العنوان (عجائب العناصر والحروف) ذكرته فى غير هذا الكتاب

خاتمة تتضمن فكرة المؤلف فى العلوم عامة وفي فن التوحيد خاصة

مما اجمع عليه رأى الحكماء انه يجب على الانسان ان يجعل له في حياته غاية يسعى لها والا عاش عيشة مهملة وقد كنت فى أبان تعامى بالجامع الازهر اتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقليات اذا ذهبت الى بلادنا بالشرقية انظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب وما اودع فى الكائنات من الغرائب وأتأمل ما فى الانهار والغدران من سيال

عجيب يذهب فكري فى ذلك كل مذهب واقارن ما أراه بما اسمعه
فلا اجد مناسبة واقول في نفسي لماذا لا نسمع في العلوم التى نتلقاها
شيئاً يحوم حول ما نشاهد كل يوم من المزارع الخضرة والجنات
وبدائع الحكمة الربانية واجد في نفسى شوقاً وتوقاً الى ذلك واتمنى
ان يكون له مدخل في معارفنا الدينية ثم اكرّ كرّةً نحو ما اتلقاه من
الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا فى احكام المعاملات والميراث
والحدود والدعاوي والبينات ولا ارى لما اشاهد في ارض الله الواسعة
الا ان العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث ونحو ذلك ومايذكر
في ابواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسلم والتسليم وكذلك
الكلام فى بيع ما بدا صلاحه او ما لم يبد صلاحه ومع كونه اجمالياً فانما
يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لا من الوجهة الالهية

سارت مشرقة وسرت مغرباً * شتان بين مشرق ومغرب

وكنت اسمع كلاماً من افواه اساتذتى وفى كتب التوحيد ان العالم في
غاية النظام وان القرآن فى غاية البلاغة فاذا توجهت الى بلاد الشرقية
وخلوت بنفسى وتفكرت فى العالم وفى القرآن اجد الامر صعباً عليّ
جداً ولا اشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة فاذا نظرت رأيت بهائم
ترتع ونباتاً يطلع واناساً تذهب وتجيء وبحاراً تجرى من ارض عليا
الى أرض سفلى فأقول اين النظام الذى يقوله العلماء فصرت أجلس
على شاطيء نهر جار وأتأمل في الحيوانات الصغيرة التى تختفي في

الاعشاب وأقول لو رأيت حيواناً عليه خطوط فيها هيئة انتظام
لدخل عندى شعور بهذا النظام ثم اذا عرفت ان هذا العالم منتظم كما
يقول العلماء الاخيار اكون اسعد الناس واكثرهم نشاطاً وجداً اذ
يكون ايماني يقينياً وبينما انا كذلك اذ فتح لي باب آيات من القرآن ولم
اكن اذ ذاك اعرف تفسيره فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات
العجائب وكان اول ما طالعت قوله تعالى (ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار) الى آخرها فتأملتها تأملاً صحيحاً
فانفتح لى باب الفكر وصرت اعرض تلك الكلمات على عقلى وانظر
بنفسى في هذه الصنعة الالهية وهكذا بقية آيات العجائب فأخذ الفكر
يطلب والمطالعة تزيد وحلا لى الفهم ثم اتصلت بالازهر بعد انقطاع طويل
وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محبٍ ولهٍ بل عاشقٍ وصرت
لا أتلو القرآن الا بتدبر وفهم ثم ساعدتني المقادير بدخول مدرسة دار
العلوم فتأملت علومها تأمل من يريد ان يعرف هذا العالم فكنت احضر
تلك العلوم واطبقها على العالم الخارجى على حسب ما سبق فى النفس
من الشوق الى ذلك حتى اتضح لى ان كل هذا العالم على غاية
النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن فى تلك العجائب فهماً يقينياً
لا تقليدياً وصار كل شيء من العالم دروساً توحيدية وكأن المتأمل فيه
يطالع عجائب القدرة الالهية والحكم الربانية فمن درس الهندسة
والحساب والطبيعة او التشريح او غيرها من العلوم ولم يذق منها لذة

النظر من وجهة الحكمة العلية فهو صاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز
عن العامة الا بالمظاهر الفانية وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو
والصرف في اي لغة من لغات العالم من العربية او غيرها ثم لم يستخدمها
في مطالعة ذلك الجمال الالهى فى آيات القرآن العظيم والعلوم العالية
مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الغريزي فليبشر بانه اضاع
ايامه ولم يحصل من حياته الا على معايشه وانه يأكل كما تأكل الانعام
فاف لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها مآكل ومشارب
يشاركنا فيها الحيوانات والنباتات اولا يرى المغرورون من ذوى
القصور عن الاطلاع على ذلك الجمال ان الغذاء والتناسل عامان في
جميع النبات فان كنت في شك مما اومأنا اليك فاذهب الى الحقول
وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا او الذرة تجد الذكران في زهرة
الاول أربعة قد أحاطت بمحل الاناث الذى هو في وسطها وقد ألقحتها
وهكذا الذرة يلقح عاليها سافلها على منوال ما يفعله الانسان بحيث
ترى ذلك الطلع الذى فى أعلاه ينزل على شرابة الكوز ويحصل
الالقاح ثم تلك الحبوب من جميع الاصناف هى المقصودة للانسان
أوله وللحيوان اذ النبات خادم لهما وهكذا الحيوان خادم للانسان
ويتمتع باللذتين تمتعاً حقيقياً فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به
هاتين الشهوتين اللتين قد شاركه فيهما فبئست العلوم وبئست الحياة التى
ترجعه من افق الانسانية الى أفق البهيمية او النباتية بل الحياة حياة العلوم

العالية والنفوس الكاملة الشريفة التى تطالع ذلك الجمال الأبهى من هذه
العوالم وهذا الكمال يشاكلها في العوالم العلوية والسفلية على نفسه
فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم ومن قرأ هذا
ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك
داخل في قوله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة
الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) وقوله (وكم من آية فى السموات والارض
يمرون عليها وهم عنها معرضون) وجميع العلوم آيات ودلائل تشف
عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام والذى أراه ان الشرقيين لا
ينالون مجدهم القديم الا اذا رجعوا الى حالة التعليم قبل اندراس العلم
لتثبت فكرة التوحيد فى جميع الاذهان واستحضار الخالق فى جميع الحركات
والسكنات ولا يخفى ان علم التوحيد آخذ فى أدوار تعليمه أشكالاً
وألواناً شتى من ابتداء الوحى الى الآن ففي زمن الصحابة والتابعين لم
يكن فناً له قواعد وأصول وفروع بل كان باقياً على الفطرة الانسانية
المستمدة من آيات القرآن وكلٌّ يعطيه الله من العلم على حسب استعداده
فخلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل
والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات واخذ
وردّ فخاف أئمة الدين رحمهم الله على العقائد فألفوا فنّ الكلام
ليكون حصناً يقى من تشويش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصوداً
لهم لذاته وانما هو سلاح وجهاد ونحن فى زمان مات فيه ذلك العدوّ

البادت تلك المذاهب فمن استعمل ذلك السلاح الان فهو غرّ يقاتل فى غير عدوّ وكيف وقد ظهر عدوّ آخر للعقائد في هذه الايام فيجب على العلماء الآن ان يبذلوا جهدهم للنظر فى كلام الماديين الاورباويين وجميع المخالفين ليردّوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الامم والافكار تتنقل وجميع ذوى الضعف في الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها اما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث (تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) فان قلت كيف يعلم التوحيد أقول يجب على المعلمين فى المدارس وغيرها ان يبتدئوا بذكر غرائب العالم من النباتات العجيبة والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ثم ينتقلون من الاغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لامور

(١) ان الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث اكثر عشقاً لها وولوعاً بها

(٢) ان دليل الالوهيــة أقرب الى أذهان البسطاء فى الغرائب كالمتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتاً يتحرك فى الدقيقة ستين مرةً لاعتقادهم ان فيه قوة الهية وما ذلك الا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح

(٣) ان آيات القرآن كلها ناطقة بان النظر في العوالم هو طريق التوحيد

(٤) ان المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتنزيه بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقاً على تلك العجائب كان أثبت فى الذهن ورسخ الايمان رسوخاً لا تزلزله الرياح العواصف

(٥) ان ذلك مع كونه علم توحيد هو ايضاً تاريخ طبيعي وطبيعة وتشريح وفلك وهكذا فيكون ما صرفه من الزمن فى تعليمه قد اكتسب به التلميذ علوماً تنفعه فى دنياه وهو لا يشعر *(من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه)* فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو في الحقيقة يقرأ علوماً كثيرة اذ التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيداً بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضاً شجراً مثمراً فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء القصد الادنى مع القصد الاعلى (ان الله يعطي الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطي الآخرة مع قصد الدنيا

(٦) ان التلميذ اذا نظر العلوم العالية يرى في نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة البارى فى تشريحه وبيطرته وطبه وزرعه وحصاده وهكذا لاعتياده على ذلك من صغره ولا سبب لفساد أخلاق الشبان الذين يتعلمون فى المدارس الاّ خلوّ عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم ومن المقرر ان الحكمة لاتفيد الاّ من يستحضر الخالق بسرّه ويعرفه بعقله

(٧) ان يرى علوم الدين التى أنزلها الله على نبيه لا تخالف الطبائع
الكونية فانه يشبّ على تطبيق دينه على ظواهر الطبيعة وينغرس ذلك في
نفسه ويستشعر استشعاراً تاماً بذلك كما هو مقصود القرآن ألا ترى
رعاك الله ان آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون
ألم يكن ذلك ليظهر للناس ان العالمين متوافقان ومن العجيب ان بلادنا
تنقسم الى قسمين فبعض الذين تعلموا العلوم الدينية وحدها ينكرون
العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ويظنون ان الدين برىء منها
وماهم الا جاهلون بها وبعض من لم يتعلم الدين ودرس في المدارس
تلك العلوم ينكر موافقتها للدين ويقول انها تخالفه ذلك مبلغهم من العلم
(وكل حزب بما لديهم فرحون) بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم
يعلم ومن جهل شيئاً عاداه بل الواجب على كل فرد من أهلها ان يأخذ
من كل فنّ طرفا والاّ صدق عليه قول الشاعر

(ومن يك ذا فم مرّ سقيم يجد مرّاً به الماء الزلالا)

فالذى خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل
من تلك النواميس قوانين وشرائع بين الناس فالكون من فعله وتلك
القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله وهل يناقض
فعل الرب الاكبر قوله (تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً) فبين
النواميس الطبيعية والشرائع المنزلة تطابقٌ وتوافقٌ لا يعرفه الاّ من
عرف العلمين واما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حريٌ بأن

يدعى تنافي العلمين بل كثير من قارئي الشرائع لقصور عقولهم
يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على اصل مأخذ النصين وما
هو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للاشياء الخارجة عنها من
النواميس الطبيعية فالحق ان الشرائع الآلهية والنواميس الطبيعية
متوافقة متلائمة وان من انكر فانما ينكر لقصور فى عرفانه وضعف
فى بصيرته . هذا ما اردت ذكره بالنسبة للالهيات اما النبوات فالذي
اراه ان يذكر صفات الانبياء ومكارم أخلاق سيد الوجود صلى الله
عليه وسلم وتكون المعجزات داخلة فى ضمن تلك الاخلاق حتى يشب
الطفل على حب النبي وعلى التخلق باخلاقه ويعتقد فيه الصدق حين
يسمع المعجزات وتكون الواجبات فى حق الرسل قد ثبتت فى الاذهان
عرضاً فهذا فضلاً عن كونه علم توحيد علم اخلاق فيخرج قارئ التوحيد
من المدارس وقد درس علوماً طبيعية واشياء وفلكا واخلاقا ولنا امل
وطيد من المدارس التى تأسست بالقطر المصري بهمة ذوي الحيثيات
والجمعيات ان تسعى فى ان تسلك هذا المسلك الحميد وتدرس التوحيد
على هذا النمط ليتم بها المقصود ان شاء الله تعالى وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم

تم الكتاب

اعتراف بجميل

﴿ من لم يشكر الناس لم يشكر الله ﴾

لما شرع حضرة الفاضل الشيخ علي ابو النور الجربي فى طبع هذا الكتاب ولم تمكنه كثرة اسفاره واشغاله من مباشرته بنفسه اناب عنه حضرة اخى الصادق عبد الحميد بك حمدى (طوبجى باشى زاده) من مستخدمى ديوان الاوقاف فباشر طبعه بجد ونشاط وقام بما عهد اليه احسن قيام واعتنى بضبطه واتقانه حباً فى نشر العلم وخدمة للآداب العامة فالحق والحق اقول معترفاً له بالفضل لقد عمل بالجد وجد فى العمل فجزاه الله خير الجزآء وشكر له جميل صنعه ·

طنطاوى
جوهرى

تقاريظ

قد ادرجنا هذه التقاريظ مرتبة على حسب تواريخ ورودها لحضرة المؤلف

قال استاذنا العالم العلامة شيخنا الشيخ حمزه فتح الله مفتش أوّل اللغة العربية بالمدارس الاميرية المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾

(اما بعد) فقد وقفت على ما نثرته من الجواهر . فى كتابك (ميزان الجواهر) وقد بَرِح الخفاء ان الميزان قسطاس العدل الذى به قوام العالم من العرش الى الفرش فلأمر ما آثرْتَ هذا السُّماء على غيره من بقية الاسماء . نعم لقد ابثَّك التوفيق عن هذا الكون نزْرًا من خُبُورِه [1] وشُقُوره وبُقُوره . وكان هاديك فى سبيله نِبْرَاسَ الشريعة المحمدية السمحة اذ بدونها لا تحوم العقول حول فهمه ولذا لم يهتد اليه اولئك الثرْثارون ﴿ بَلْ كَذَّبوا بِمالَمْ يحيطوا بعلمِهِ ﴾ فلا

(١) قوله خبوره . وشقوره . وبقوره . اي اسراره وخباياه

يهولنك فقد ذهبت الرّاح بعُظْم عقولهم خلا لميعَةً هي على
وشك الذهاب حتى كأنما يغنيهم شاعرنا العربي بقوله

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفي الزّجاجة باق يطلب الباقي

قاتلهمُ الله فلطالما اوهموا الاغرار انهم اكتشفوا الاسرار
ونزفوا منها البحار واذاهم

لم ينزفوا قطُّ الا قدر ما نزفت
تلك العُمانيّةُ[1] الخرقا من الماء

هذا مع اعتراف منصفيهم بان قصاراهمُ الحدْسُ والتخمين
والحزْرُ والتخريص
يا سبحان الله وسبحانه ما أحقَّ الحنيفيَّةَ وأعدلَ ميزانها واقومَ
برهانها واصدق قرآنها فكما اسلفناه في باكورتنا[2] كلما

(١) قوله العمانية سألت الشيخ حفظه الله عنها فقال هي بنت الجلندا ملك عمان البست حليها غيلمة اى (سلحفاة) على شاطئ البحر فانسابت فيه فجعلت تغرف من البحر بكفيها وتصبه على الساحل فقالت لجواريها نزاف نزاف . لم يبق في البحر غير غراف (جمع غرفه) اه

(٢) قوله باكورتنا هو كتاب ألفه الشيخ وقدمه الى المؤتمر العلمي باستكهلم عاصمة اسوج ونروج يسمى باكورة الكلام على حقوق النساء في الاسلام ترجم الى كثير من لغات اوروبا اه

انتهت العقول الى نهاية الْفَتْهَا فيها بداية
لسرعان ماانكشف بها غطاء الحقائق لتقوم حجتها على العالمين
﴿وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾

ولقد أذكرني ميزانك هذا (يا تلميذى الابر ومثلك من
يفخرُ به شيوخهُ) وماسطره صنوك محمد فريد وجدى بك
(ذاك الشاب الذى لا إخالهُ الا حجة من الحق تبارك وتعالى
على من نبغ من اترابه في اللغات الاجنبية) بصحيفته الحياة
وكتابه الحديقة الفكرية ما قالهُ السعد فى شرح المقاصد نقلاً
عن الامام حجة الاسلام اثناء تعريف علم الكلام ومحصله
ان المتكلم ينظر في اعمّ الاشياء وهو الموجود فيقسمه الى
قديم ومحدث والمحدث الى جوهر وعرض الى ان قال وينظر
في القديم فيتبين انه لا يتكثر ولا يتركب وانه يتميز عن
المحدث بصفات تجب له وامور تمتنع عليه واحكام تجوز فى حقه
من غير وجوب او امتناع ويبين ان اصل الفعل جائز عليه
وان العالم فعله الجائز فيفتقر بجوازه الى محدث وانه تعالى
قادر على بعث الرسل وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات وان

هذا واقع وحينئذ ينتهى تصرف العقل ويأخذ فى التلقي من الرسول صلى الله عليه وسلم

وما قاله القطب الرازى فى شرح مطالع الانوار من ان تحصيل المطالب النظرية من مباديها متوقف على هداية الله تعالى لتعدد الطرق وكون التميز بين الخطا والصواب لا يتم بمجرد الطاقة البشرية الى ان قال واما مراتب القوة العملية فأولاها تهذيب الظاهر باستعمال الشرائع النبوية والنواميس الالهية وثانيها تهذيب الباطن عن الملكات الردية وثالثها ما يحصل بعد الاتصال بعالم الغيب وهو تحلى النفس بالصور القدسية ورابعها ما يتجلى له عقيب اكتساب ملكة الاتصال والانفصال عن نفسه بالكلية اه —

وانى ذلك للنفوس البهيمية

ثم ناهيك بقول الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ان للعقل حداً ينتهي اليه كما ان للبصر حداً ينتهي اليه وقول الغزالى ولا تستبعد ايها المعتكف فى عالم العقل ان يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه مالا يظهر في العقل الخ

وقول الشيخ الاكبر في فتوحاته

على السمع عولنا فكنا اولى النهى * ولا علم فيما لا يكون على السمع

وقوله قدس سره

كيف للعقل دليل والذى * قد بناه العقل بالكشف انهدم

فنجاة النفس فى الشرع فلا * تك انسانا رآى ثم حرم

واعتصم بالشرع فى الكشف فقد * فاز بالخير عبيد قد عصم

اهمل الفكر فلا تحفل به * واتركنه مثل لحم فى وضم

ان للفكر مقاماً فاعتضد * به فيه تك شخصاً قد رحم

كل علم يشهد الشرع له * هو علم فبه فلتعتصم

واذا خالفه العقل فقل * طورك الزم مالكم فيه قدم

وبالاجمال فحياك الله وبيّاك وأضاء بنور الشريعة المحمدية فؤادك ومحيّاك

الفقير اليه عز شأنه

حمزه فتح الله

الاربعاء ٩ شوال سنة ٣١٨

وقال حضرة العالم العلامة والحبر الفهامة حضرة الاستاذ الشيخ سليمان العبد من علماء الازهر الشريف ودار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

احمد من ارشدنا باصفياء العلماء الى اسرار الحقائق . واصلي وأسلم على من حاز اشرف الاخلاق وهو افضل الخلائق . وآله واصحابه الذين اوضحوا لنا احسن الآداب . وكانوا للدخول في معرفة كلامه الجامع خير ابواب . اما بعد فاني وقفت وقوف من تدبر الالفاظ لادراك معانيها . وامعن النظر في خفايا اسرارها وكان ممن يعانيها . على الكتاب المرسوم (بميزان الجواهر . فى عجائب هذا الكون الباهر) المشحون بفرائد الدرر . المشرق فى طرر جباه الكتب غرة تزدان بها الغرر . فوجدته كتاباً محكم البنيان متقن المعاني والبيان . كشف لنا المخبأ من اسرار هذا الكون الباهر . وابان منهج السلوك للدخول من باب هاتيك الجواهر . كيف ومنشأه حضرة العلامة الذى اضاءت معارفه كانها كوكب دري . المفضال الشيخ طنطاوي الجوهرى . من سجعت

ورق الفاظه بفنون الادب على افنان المعارف . واشرقت مطالع كلامه ببدور اللطائف . فكيف لا نخلص الثناء على شمائله الحسان . ونشكر مساعيه التي قلدت بقلائد العقيان . اكثر الله من امثاله . وادام سعود كماله . امين

ورد فى ٢٩ شوال سنة ١٣١٨ كاتبه

سليمان العبد
خادم العلم بالازهر الشريف
ودار العلوم

سيدى واستاذى وبغيتى وملاذي صاحب الفضل العبهري . الشيخ طنطاوي جوهرى . حفظه الله تعالى

اطلعت على كتاب سيدى المسمى (ميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر) اطلاع من تهمه معرفة حقائق الامور . وهو على عرائس نفائسها غيور . فوجدته والحق يقال . من اجل اعمال الرجال . محلى بالجمال . موشحاً بالكمال . الفاظه رائقة . ومعانيه شائقة .

زين معانيه الفاظه * والفاظه زائنات المعاني

فكل كلمة منه فى وجه الطرس غره . وكل معنى من معانيه في لجة صفحاته دره . واعيد كلمة الحق . واقول انك نابغة الشرق . فقد اودعت هذا السفر الجليل . ايها الفاضل النبيل من محاسن العجائب مالا يصفه واصف ولا يدركه الا العارف كيف لا وفيه من العلم ماهو مطمح انظار العلماء ومن المباحث ما هو منتهى آراء العقلاء ، فكأن كل عجيبة فى الكون املت عليك حديث سرها المكنون . فاودعته ميزانك الذي فيه كل شيء موزون فاصبح ولا شك اجلّ عزيز يقتنى واعظم نفيس بصونه يعتنى فاهنىء به الشرقين واخص المصريين

شعر

فانه والله سفر حوى * سمط معان قبل لم تظهر
عجائب الاكوان مجموعة * في طيه للقارئ المبصر
صيغ به الدر ولاغرو فى * ذاك فمن قدصاغه جوهري

احمد سعيد البغدادي
ناظر مدرسة السعادة الاسلامية
بقسم الخليفة

ورد فى ٣ القعده سنة ١٣١٨

وقال حضرة العالم النحرير الجهبذ الناظم الناثر الشيخ حسين والي من أفاضل علماء الجامع الازهر

حمداً لمن امر بالافكار فى حدثه . فهدى نهى ثلة لسياج الاذعان بجمال جلاله فولجت من حيث الامر . واضل نهى ثلة فهى ببيداء النأى معقولة . لا ان اهل تلك يعملون حقا واهل هذه يعملون باطلا . والله خلقكم وما تعملون . استأثر بالابداع والامر والنهى ويسر كلا لما خلق له . وصلاة وسلاما على من آتاه من لدنه علما وانزل عليه فرقانا فارقا بين الصدق والكذب . عبده ورسوله سيدنا محمد الفاتح الخاتم . وعلى آله وصحبه . اما بعد فياصاحب ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر ، انت منى بين اذنى وعاتقى ، فقد بلغت فى العلم أطوريه . والحبارى خالة الكروان . فكنت حثيث التوالي . شديد جفن العين . سميذعا لا تقرع له العصا . ولا تقلقل له الحصا

تريع اليه عيون الكلام * اذا حصل الهذر المهمر

انشط من ظبي مقمر . واناى منزلة من الكوكب . غير انك فيما بيننا اقرب من يد الى صاحبها . رقيت بلبك فى السماء فدريت الكنه وجئتنا بكتاب نقرؤه . ونظرت الى مقابلتها كذلك . ولم تأخذك زينتهما بالمصابيح والنبات . وانما اخذك ماوراءهما . وانك لعالم بمنابت القصيص . معافى غير مخدوع . فلما غزرت مواد استطلاعك وانكشفت لك الحقائق . امتلأ بحر علمك بالجواهر بدل المياه . ثم انت بها تحلينا كما يحلى جيد الحسناء بعقده . وتتفضل كما يتفضل الكريم برفده . واذ كانت جواهر غيرك اسماء بلا أجسام . كالحارث

ابن همام . وخفت ان يقال اختلط المرعى بالهمل . رجعت على فرواك
ورميت بسهمك الاسود والمدمى . ووضعت ميزانك بالقسط . ورأى
الشيخ خير من مشهد الغلام . فان لكل عود عصارة . وكذلك
النجار يختلف . فاذا كل عبارة منه لم ير مثلها فى شام ولا فى عراق
تدل على ارفع واسمك من الخلاف والوفاق .

هى زهراء مثل لؤلؤة الغـــوّاص ميزت من جوهر مكنون
واذا ما نسبتها لم تجـدهـا * فى سناء من المكارم دون

اودعتها القض والقضيض . وحكمت فيها الحكم المسمط . على انها
بالنسبة لك غيض من فيض

لم ندر ما الدنيا وما طيبها * وحسنها حتى رأيناها

فقل لمن أخذ الفلسفة على قدم بعض القدامى ومن خلفهم . الايل
واهضام الوادى . فلسفتهم عضة هاجن . وجلت الهاجن عن الولد .
انك لتكثر الحزّ ولاتخطىء المفصل . ادعوا البحث فى الكائنات لينالوا
لقباً . فاحتطبوا في الليل حطباً واخو الظلماء اعشى بالليل . كلفوا
انفسهم مخ البعوض . ورجعوا بخفى حنين . حسبك ثم حسبك .
فمن لا يعرف الوحى احمق . وان دواء الشق ان تحوصه . ليس بينهم
وبين صاحب الميزان . بطحة الانسان . فالناس اخياف

وانما يبلغ الانسان طاقته * ما كل ماشية بالرجل شملال

اردت ماء من سراب . ومن يرد مواطر من غـير السحائب يظلم .
صاحب الميزان انفذ من خازق . نهج ما نهج . وانه لاريض للخير .
ونسج ما نسج . وانه نسيج وحده . وان العوان لا تعلم الخمرة . ان
امسك فهو متدبر . وان جرى فجرى المذكيات غلاب . وكفى

قوماً بصاحبهم خبيراً . ففضله عليهم فكم ترك الاول للآخر . ولا
تسوّ في المآثر .

وما انتفـاع اخي الدنيا بناظره   اذا استوت عنده الانوار والظلم

رأيت كتابه فقلت الجواد عينه فراره . والريع من جوهر البذر
وحق ان يبرز الصريح بجانب المتن . بلغ الله بصاحبه اكلأ العمر
فانه عللنا ثانية بما نشتهى . فاذا قطع علما بدا له علم

كل يوم تبدى صروف الليالى * خلقا من أبي سعيد غريبا

اتانا بسفره هذا وآيته اكبر . كما نصر فيه الرأي واذا نصر الرأى
بطل الهوى . سفر يجلس اليه . ولا يشقى بقعقاع جليس . فجزيته
كيل الصاع بالصاع . وانما يجزى الفتى ليس الجمل . وأوليته ثناء اذكى
من الورد . وحق لفرس بعطر وأنس . فلا ذنب لى قد قلت للقوم
استقوا . فهذا المؤلف ايضاً من عجائب هذا الكون الباهر . سبحان
من براه وعلمه البيان . ووضع الميزان ان لا تطغوا في الميزان .

حرر فى يوم السبت الرابع من شهر ذى القعده الحرام سنة ١٣١٨

الفقير حسين والي
الشافعى خادم العلم بالازهر

خطأ	صواب	صحيفه	سطر
ختم	طبع	٠٨	٣
قبيح	قبيج	٩	٩
تجسيمها	تجسمها	١٨	١٢
تعلوا	تعلو	٢٥	١٥
يردنها	يرونها	٢٦	٧
الرزائل	الرذائل	٢٩	٥
بالعقود	بالتعود	٢٩	٥
تنعكس	ينعكس	٣٠	١٢
سيمة	سيما	٣١	١٥
سرُج	اسرج	٣٢	٦
١١ يوم	١١ يوما	٦٨	٢
٤٠٠	٤٠٠٠	٧٣	١
فتكون كبيسه	يجب حذفها	٧٣	١
بالصدفه	بالمصادفة	٧٣	٩
تعرف	نعرف	٧٤	١
الصدفه	المصادفة	٧٨	١٤
ارُجعُون	ارجعون	٧٩	٣
ان	انا	٨٥	١٢
وعواطفٌ	وعواطفَ	٨٧	١٤
كرّات	كُرات	١١٢	٢
قوله	قولهم	١١٦	١٢

خطأ	صواب	صحيفه	سطر
وتمو	وتموا	١١٩	١٣
كل	كلا	١٢٤	٥
لا	الا	١٣٢	٥
لما	لم	١٣٥	١٤
حسان	النابغه	١٦٣	١٤
رقة	دقه	١٧١	١٢
السموات	السماء	١٨٤	٢
يعرض	يعرض	١٨٤	١٦
برأت	برئت	٢٠١	٤
ترى	تر	٢٠٥	١٠
الجاهل	الجاهلى	٢٠٦	٧
ملامسة	ملاسة	٢٠٧	١٣
الاول	إلى الاول	٢١٧	٦
يقتهرها	يقهرها	٢٤٤	٨
منه	منها	٢٥١	٣
حصناً	حصناً	٢٥٥	١٨
البادت	وبادت	٢٥٦	١
وكيف	كيف	٢٥٦	٢

﴿ الفهرست ﴾

صحيفه

ميزان الجواهر

في عجائب هذا الكون الباهر

تأليف حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ طنطاوي جوهرى

(من متخرجي الازهر الشريف ومدرسة دار العلوم)

(طبع على نفقة العلامة الحبر المحقق والفهامة البحر المدقق)

قدوة السالكين وامام العارفين الفريد الوحيد

ناشر لواء التوحيد سيدي

الشيخ علي ابي النور الجربي السكندرى

امام سراي دولتلو الغازي احمد باشا مختار ، وفقه الله الى ما يحب ويختار

طبعة اولى سنة ١٣١٨ هجرية

(طبع في المطبعة المتوسطة بشارع الرويعي بمصر نمره ١٤)

يُطلب هذا الكتاب (ميزان الجواهر) من ملتزم نفقته
(حضرة الفاضل الكامل الشيخ علي ابو النور الجربى السكندري)
او من (مكتبة المدارس بالصليبه) تجاه مدرسة والدة جنتمكان
عباس باشا الأول او من {المطبعة المتوسطة بشارع الرويعى
بالازبكية} محل طبعه
